

الثقافة

مجلة شهرية فكرية جامعة تصدر في دمشق

- تأسست عام ١٩٥٨م -

جمادى الثانية ١٤٣٠ هـ
حزيران ٢٠٠٩ م

الثقافة

أدبية فكرية جامعة

تصدر شهرياً في دمشق تأسست عام ١٩٥٨

مؤسسها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE
FONDATEUR ET REDACTEUR
EN CHEF DE LA REVUE

AL THAKAFA

ص . ب : / ٢٥٧٠ /

هاتف : ٢٣٢٣٠٦١

فاكس : ٢٣٢٠٨٨٧

دمشق

P.O. BOX: 2570

TEL: 2323061

E-Mail: AndreeKara@Mail.sy

هيئة المستشارين :

د. عبد اللطيف اليونس
د. عمر النص
د. سمر روجي الفيصل
د. طلعت الرفاعي
أ. فيصل العظيمة
أ. عبد الكريم ناصيف
أ. جابر خير بك
أ. عصام الحلبي
أ. عيسى فتوح
أ. فهد صالح المهنا

شبكة كتب الشيعة

أمانة التحرير : سكيانة عكاش الخبيرة

جمادى الآخر ١٤٣٠ هـ

حزيران ٢٠٠٩ م



بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العدد

٣	الحياة الأدبية في مدينة دمشق القديمة	د. جوزيف كلاس
١٨	الرحيل إلى البداية..	د. عمر النص
٢٤	يا قدس.. يا مدينة الأنبياء	أحمد الخوص
٢٨	الأديب والناقد عدنان الذهبي	يوسف عبد الأحد
٣٠	تاريخ الاستشراق الروسي	عيسى فتوح
٣٤	اعترافات امرأة شتائية..	د. سعاد الصباح
٣٨	قصة: كرسي الرجل الليمونة	د. نزيه بدور
٤٠	حوار مع الكاتب د. يونس لوليدي	حاورته: عصمت كامل إسماعيل
٤٤	قد عتقتها يد الباري..	كامل إسماعيل
٤٦	مشكلة الذكاء بين الوراثة والبيئة	خديجة بدور
٥٤	ليس ذنب قريحتي..	جورج شدياق - فنزويلا
٥٨	الشاعر زهير ميرزا المبدع الذي رحل	غسان يوسف مزاحم
٦١	مكتبات وكنائس وأديرة دمشق	محمد عيد الخربوطلي

دمشق القديمة قصيدة في ديوان الطبيعة
وليست مدينة فحسب، فإن تاريخها وحياتها وما
انبثق عنها من أدب وشعر كل ذلك يغرينا بقراءة
أخبارها والوقوف على آثارها والاطلاع على نتاج
أدبائها وشعرائها.

ودمشق قديمة قدم هذه الأرض فقد اتفقت
آراء كثيرة على أن أول مدينة شرع ببنائها في
الدنيا هي دمشق، بل لقد قيل على وجه التدقيق أن
أول حائط رفع بعد الطوفان حائط حران ودمشق،
ثم بابل. وأن سيدنا نوح عليه السلام لما هبط من
السفينة وأشرف على الأرض أتى حران فخطها ثم
رأى دمشق فخطها فكانت هاتان المدينتان أول
مدينتين بعد الطوفان.

ودمشق جنات النعيم
أقيمت سدة عدنهن ربك

والذي يهمنا من هذا الموضوع (الحياة
الأدبية في دمشق قديماً وحديثاً) الحياة الأدبية
العربية فقط أما آداب الأمم الأخرى فقد عني بها
من تخصصوا بلغاتها من آرامية وسريانية
وعبرانية، ورومانية، وفينيقية، وحثية، وقد
أصبحت هذه الآداب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة
الآثار القديمة لبعد طريقة التفكير بين هذه الشعوب
القديمة وبين من يقرأ الأدب هذه الأيام.

أما بالنسبة للغة العربية فقد استمرت
مجالس الأدب في دمشق منذ القديم ولكنها عرفت
عصراً ذهبياً في العهد الروماني وهو العهد الذي
سبق الإسلام يوم كان بنو غسان في دمشق وكانوا
متأثرين بالطريقة الرومانية في الحياة الفنية
والأدبية، فقد كان الرومان متطرفين في لهوهم
مبالغين في السعي إلى الملذات وقد وصف ذلك
مؤرخو روما وصفاً لم يترك زيادة لمستزيد
وتحدثوا فيما كان عليه أهل روما من انصراف إلى
اللهو وانسياق وراء اللذائذ، ولعل العرب في
دمشق قبل الإسلام قد تأثروا بهذه المجالس،
وأثرها فيها فأدخلوا عليها ألواناً من الرقة والدماء
والشعر والأدب.

أحياء الأدبية

في

مدينة

دمشق

القديمة

بقلم الدكتور:

جوزيف كلاس

هذه المجالس كانت تمثل الحياة الأدبية في هذه العصور البعيدة التي سبقت الإسلام، وهي التي حفظ الرواة عنها ما ند عن أفواه أصحابها من شعر وغناء هما كل ما وصل إلينا من تلك العهود.

وليس خافياً أن أقدم عصر بالنسبة للأدب العربي هو العصر الجاهلي هذا العصر الذي كانت فيه دمشق منفصلة عن العالم العربي حكماً وسلطة لأنها كانت تابعة للرومان كما قلنا كما كان العراق تابعاً للفرس، وكان العرب المقيمون في دمشق يقدون الرومان في حياتهم الخاصة وفي مجالسهم وكان بعض شعراء الجاهلية من العرب يقدون إلى قصور الغساسنة ينشدونهم أشعارهم ويتحدثون إليهم حديث الأدب ويستمعون إلى ما عندهم من مغنيات ومطربات يغنين بالشعر العربي الصافي من نسيب ووصف وخمريات. ولعل من أقدم الشعراء الذين وفدوا على دمشق هاتيك الأيام الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني. فقد ساءت الحال بين النابغة والنعمان بن المنذر الملك الخطير وكان غضب الملك على الشاعر غضباً سياسياً سببه الدس والحد. فهاجر النابغة إلى دمشق ليحل ضيفاً على عمرو بن الحارث الغساني كما اتصل بالنعمان الغساني وظل عند هذين الملكين معزراً مكرماً حقبة من الزمن حتى رضي عنه النعمان بن المنذر فعاد إلى الحيرة ولقد سمع الشاعر حسان بن ثابت شعر النابغة مرة فقال:

"لم أدر على أي شيء أحسده، على جودة شعره، أم على جزيل عطيته"

ولقد وصف النابغة ملوك الغساسنة فعدد بعض أسمائهم بأبيات تنم على السهولة والطبع الشعري الصادق فقال:

هَذَا غِلام حَسَن وَجْهَهُ
مَسْتَقْبَلُ الْخَيْرِ سَرِيعُ التَّمَامِ
الْحَارِثُ الْأَصْفَرُ وَالْحَارِثُ
الْأَعْرَجُ وَالْأَكْبَرُ خَيْرُ الْأَنْامِ
ثُمَّ لَهْنَدٌ وَلَهْنَدٌ فَقَدْ
أَسْرَعَ فِي الْخَيْرَاتِ مِنْهُمْ إِمَامُ

خَمْسَةَ أَبْنَاءَهُمْ مَا هُمْ
هَمْ خَيْرٌ مَنْ يَشْرِبُ صَوْبَ الْغَمَامِ

ولقد كانت لهذه الأبيات شهرة حتى لقد فضل الشعبي النابغة على الأخطل بها.

ولعل من أجود شعر النابغة في هذا الباب قصيدته التي مدح بها عمرو بن الحارث الغساني من ملوك دمشق والتي مطلعها:

كَلِينِي لَهُمْ يَا أَمِيمَةَ نَاصِبِ
وَلِيْلُ أَقَاسِيهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قَلَّتْ لَيْسَ بِمَنْقُضِ
وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِأَيْبِ

وفيها يقول له:

وَتَقَتْ لَهُ بِالْغَمَامِ إِذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ
كَتَائِبُ مَنْ غَسَّانُ غَيْرَ أَشَانِبِ
إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ
عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

ثم يأتي بعد ذلك البيت الرائع:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ
بِهَنْ فُلُولٍ مَنْ قَرَاعِ الْكَتَائِبِ

ولنترك النابغة لنصل إلى كبير الشعراء العرب الجاهليين امرئ القيس الكندي فهذا الشاعر قد اتصل أيضاً ببلاط الغسانيين في دمشق اتصالاً سياسياً فلم يكن مداحة ولا نواحة، فإن سيد شعراء العرب حين قتل أباه بنو أسد وأعياء الجهد في سبيل أخذ ثأره ذهب إلى صديقه السموال بن عادياء بتيماء وسأله أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني في دمشق، وكان له ما أراد فقد كتب له السموال إلى الحارث فصار إليه بكتابه فلقى عند الحارث كل كرامة وأرسله إلى قيصر الروم (جو ستنيان) الشهير مزوداً بالتوجيه اللازم ليعين الشاعر على حرب بني أسد والفرس أنفسهم الذين آزرُوا قَتْلَهُ أَبِيهِ.

كان ملوك الغساسنة في دمشق يقربون شعراء البادية ويكرمونهم لصلتهم القومية بهم رغم اتصالهم السياسي بملك الروم، فكانوا يتركون المجال لهؤلاء الشعراء ينعمون بنعمة الحضارة في دمشق بعد خشونة البادية التي عاشوا فيها ولم يستطع عدي بن زيد السكوت حين زار صديقه بشراً الغساني في دمشق فقال:

قَد سَقَيْتَ فِي دَارِ بَشَرٍ
قَهْوَةً مَرَّةً بِمَاءِ سَخِينٍ

وللبيد بن ربيعة أيضاً فترة من الحياة قضاهما في قصور الغساسنة ولقد نقل ابن قتيبة كما روى غيره من المؤرخين أن الحارث الأعرج الغساني قد بعث إلى المنذر بن ماء السماء بمائة فارس وجعل لبيدا الشاعر أميراً عليهم، وهؤلاء قد تمكنوا من قتل المنذر بحيلة. ولقد قتل هؤلاء الفرسان ونجا لبيد فأتى ملك الغسانيين فأخبره الخبر والتقى العسكران من المناذرة والغساسنة فكان ذلك يوم حليلة المشهور ولكن المؤرخين المحدثين يناقشون هذه الرواية وينقضونها تاريخياً، لأن لبيدا كان حدثاً في عهد النعمان أبي قابوس وبين هذا النعمان وبين المنذر بن ماء السماء الذي مر ذكره نحو نصف قرن، مما يثبت أن الشاعر الذي عرف المنذر هو غير لبيد ابن ربيعة شاعرنا المعروف.

أما علقة الفحل الشاعر الذي تحدى امرؤ القيس بالشعر فعارضه وسابقه في الارتجال قد اتصل بالحارث بن جبلة ابن أبي شمر الغساني وكان هذا قد أسر أخاً للشاعر اسمه شأس فرحل إليه يطلبه ويمدحه بهذه القصيدة الشهيرة:

طحا بك قلب للحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

وفيها يقول الأبيات الشهيرة:

فإن تسألوني بالنساء فإني
بصير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له من ودهن نصيب
يرون ثراء المال حيث علمنه
وشرخ الشباب عندهن عجيب
وفيها أيضاً يقول للحارث:

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي
بكلها والقصيرين وجيب
لتبلغني دار امرئ كان نائياً
فقد قربتني من ندادك قروب

وقد لبى الملك الشامي طلب الشاعر وأطلق له أخاه.

وكان آخر ملوك الغساسنة على ما يروي التاريخ جبلة بن الأيهم وقصته معروضة مع الخليفة عمر بن الخطاب حين ضرب الملك الغساني البدوي واضطر إلى ترك الإسلام والهجرة إلى القسطنطينية لأنه لم يرد أن يقتص البدوي منه كما يقضي بذلك الشرع الإسلامي ولكنه ندم على ترك الدين الحنيف وبعث بهذه الأبيات العاطفية:

تنصرت الأشراف من أجل لطفة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني
رجعت إلى الأمر الذي قاله عمر
ويا ليت لي بالشام أدنى مكانة
أجالس قومي فأقد السمع والبصر

ولكن ما مر بك من الأدب الدمشقي الجاهلي أن هو إلا لمحات خاطفة وفترات عابرة فقد كان أكثر الشعراء من البادية وكانوا يفدون إلى دمشق انتجاعاً للكرم الغساني ونيل الرفد والأعطيات، ولكن الشاعر الذي كانت تربطه بدمشق رابطة الصداقة والولاء لملوكها ولأمرائها إنما هو حسان بن ثابت الشاعر الجاهلي والإسلامي والرجل الذي خلد بشعره مظاهر المدينة في دمشق ومجالس الشراب فيها على عهد الغساسنة.

ولقد مل حياة الزهد والخشونة في المدينة
فطمح إلى العيش عند أقاربه الغساسنة فحسان
خزرجي الأصل يجمعه بالغسانيين نسب قحطان
اليمني النازح من بلاده إلى هذه الدار دمشق.
ولقد قصد أول أمره جبلة بن الأيهم فكان
لقاء الأمير له حاراً وكان استقبالا خالصاً لوجه
الشعر والفن وعاش بكنف هذا الأمير حتى تعود
الرفه والهناء. ثم طمحت نفسه إلى منادمة الملك
الغساني ذاته عمرو بن الحارث وكان حسان شاباً
حتى لقد عطف عليه هذا الملك وأحبه محبة خاصة
جعلته يخشى عليه من الشعاعين النابغة وعلقمة
الفحل فلم يكن يسمح له بالإنشاد في محضريهما
خشية أن يظهر عليه ضعف الشباب فيفضحه
الشاعران حسداً وكرهاً ولكن حسان تحرك في
صدره حب التحدي وكأن هذا التحدي لشاعرين
كبيرين كالنابغة وعلقمة قد ألهمه قصيدته الشهيرة
التي مطلعها:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابي فالبضيع فحومل

وأعجب الملك الغساني بالشعر وظهر عليه
الاعجاب والتعصب لعشيرته القحطانية وصاح:
"هذه والله البتارة التي بترت كل المدائح"
ولقد وصف صاحب الأغاني مجلساً من
مجالس اللهو والطرب في دمشق حيث كان ينشد
الشعر حسان فقال:

"تعطف فيها القيان بالرابط ويفد إليها
المغنون العرب من مكة وغيرها ويجلس فيها
للشرب وقد فرشت بالآس والياسمين وأصناف
الرياحين، وضرب فيها العنبر والمسك في صحاف
الفضة والذهب وأوقد فيها العود المندى في الشتاء
وجعل فيها الثلج في الصيف، هذا كله مع حلم
عن جهل وضحك وبذل من غير مسألة مع حسن
وجه وحسن حديث.

وظل حسان في هذه النعمة حتى هاجم
الفرس الروم فغلبوهم وهدموا دولتهم عام ٦١٣م
وقضوا على ملك آل جفنة من ممدوحى الشاعر
وفر أمراؤهم إلى بلاد الروم وفر قسم منهم إلى

الصحراء وعلى رأس هؤلاء جبلة بن الأيهم الذي
مر بك ذكره.

ورجع حسان إلى بلده حيث الخشونة
والجفوة والتقصيف ولكنه ذهب وفي قلبه حرقه
وفي نفسه لوعة ليقول وهو يرثي أيامه في
دمشق:

من يغر الدهر أو يأمنه
من قبيل بعد عمرو وحجر
أو ليقول:

ديار ملوك قد أراهم بغيطة
زمان عمود الملك لم يتهدم

ولم ينس حسان أطيب دمشق ومحاسنها
حتى جاء الإسلام فدخل فيه وحسن إسلامه ونسي
ماضي زمانه ولهوه ومجونه وهكذا تحول من
شاعر فن وصباية إلى شاعر مبدأ ودفاع عن
صاحب المبدأ العظيم ولكنه ظل يذكر عهود دمشق
الجميلة حتى بعد أن أسن وهرم وذهب بصره وكان
إذا ذكر له شيء من شعر الماضي بكى تذكراً
ونشج حنيناً وشوقاً، ولقد غنت قينة يوماً قوله في
آل جفنة:

أولاد جفنة قبر أبهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

فبكى الشاعر بكاء حاراً ثم اتصرف من
المجلس ولم يستطع البقاء وقصيدته المشهورة
هذه هي التي يقول فيها:

لله در عصيبة نـادمـهم
يوماً بـجـلق في الزمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
مشي الجمال إلى الجمال البذل
أولاد جفنة حول قبر أبهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل
يسقون من ورد البيرص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه كريمه أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول
نسبي أصيل في الكرام ومذودي
تكوي مياسمه جنوب المصطللي
ولقد تقلدنا العشيرة أمرها
ونسود يوم الذنابات ونعتلي
ويسود سيدنا ججاج سادة
ويصيب قائلنا سواء المفصل
وتزور أبواب الملوك ركبنا
ومتى نحكم في البرية نعدل

وجاء الحادث الأكبر بمجيء الإسلام وتغير
المجتمع العربي في أساسه وانصرف الناس إلى
حياة العبادة والتفكير بالدار الآخرة والفتح المبين،
وركدت سوق الأدب بعض الشيء فإن الدين الجديد
نظر إلى الشعر نظرات غير مشجعة وإن هو قد
مدح البيان وأطرى الفصاحة والبلاغة وجعل من
بعض الشعر حكمة. كما انصرف الناس إلى التجمع
في عاصمتي الدين الجديد مكة والمدينة وما
حولهما من أمكنة، وتحول الشعر إلى اللون الديني
الإسلامي بين مديح للنبي ودفاع عنه ووصف
لأعماله وفتوحاته، واستراحت دمشق أدبياً وإن
أصبحت بعد الإسلام هدفاً للفتح ومقصداً للغزو
العربي، فتغير بعض أهلها، ونزح عنها الكثيرون
مما كانوا فيها، ولكن الشام سرعان ما أقبل عليها
الزمن فجعل منها عاصمة البلاد على يد معاوية بن
أبي سفيان.

ولقد وقع النزاع السياسي الكبير بين علي
ومعاوية فكان من ورائه نزاع شعري أدبي خلف
لنا آثاراً فنية ثمينة، ولكن اللون الذي غلب على
هذا الفن كان لون الهجاء الذي أثاره انتماء
الشعراء إلى حزب سياسي دون آخر كما صنع
شعراء الخلافة من جماعة الأمويين، والخوارج،
والشيعة، وآل الزبير. ولقد شجع الخلفاء الأمويون
الشعر في الشام ليناهضوا به أولئك الذين أخذوا

يحاولون استخلاص الخلافة منهم فكان للشعر الأثر
الكبير في تثبيت دعائم حكم بني أمية.

ولقد نسب في هذا العهد كثير من الشعر
للخلفاء الأمويين منذ معاوية حتى آخر خليفة
فيهم، ولكن أكثر هذا الشعر متحول قد أملت
السياسة وصنعت الخلافات الحزبية، ولم يأتنا خبر
نكاد نوقن به إلا عن شعر الوليد بن يزيد.

ولكن معاوية وغيره من الخلفاء وخاصة
عبد الملك بن مروان قد كانوا يكونون العطف على
الشعر والأدب وكانت تعقد المجالس الأدبية
الخاصة، ولكن هذا الأدب كان يمتزج بالسياسة وقد
اعتمد معاوية على الشعر في حل مشاكله الخاصة
من مثل بيعه ابنه يزيد وإحقاق أخيه لأبيه زياد،
وشؤون بني هاشم وبني الزبير كما كانت وفود
الشعراء والشاعرات تفتد إلى مجلس معاوية فينتج
عنها من الشعر المزيج من الأدب والسياسة التي
كانت تروح وتجيء بهم الأمويين وبقية الفروع
العربية ولقد كانت حرية الأدب والشعر مضمونة
أيام معاوية وخلفائه، اللهم إلا ما كان يتعلق
بالشعر السياسي فقد كان مقيداً أو محظوراً، إلا إذا
كان هذا الشعر ملتزماً بجانب الأمويين، كما كان
شعر الأخطل شاعر هذا العصر.

وقد كان للعهد الأموي آثار مشجعة في
الشعر والأدب فقد استخدم الشعر في السياسة
ولقى الشعر القومي عناية خاصة من حيث الحفظ
والاستشهاد والاقتباس من غيره وكذلك تشجيع
الرواية، ورعاية مجالس الشعر وأسواقه وتوجيه
الشعر إلى ما يناسب المقام من معان، فعبد الملك
كان ينتقد الشعراء في بعض ألفاظهم وأخيلتهم،
كما صنع مع جرير وذو الرمة، وكما جرى لليلى
الأخيلية مع الحجاج إلى آخر هذه الآثار التي
طورت الأدب الجديد، هذا الأدب الذي كان يصدر
عن مجالس الخلفاء في دمشق لتتلقفه المجالس
الأدبية في المواطن الأخرى من العالم العربي،
ولقد ترك الأخطل في مدائحه للأمويين ودفاعه
عنهم ومهاجمته خصومهم آثاراً كبرى، ونحن نذكر
قصيدته الرائعة:

خفف الفطنين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى في صرفها غير

وقصيدته الأخرى التي هجا فيها الأنصار
وكانت مثلاً للجرأة الأدبية على أناس نصروا النبي
ومدحهم القرآن وذلك في قصيدته الشهيرة التي
يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكـارم وحدها
واللـؤم تحست عمائم الأنصار
فدعوا المكـارم لستم من أهلها
وخـذوا مسـاحيكم بني النجار

أو قصيدته التي تعرض فيها للدين
الإسلامي، وهو غير مسلم، وتعجب الناس كيف
سكت الخلفاء الأمويون على كل هذا، وأدركوا أن
السياسة قد طغت على كل شيء في هذا العهد،
وأن الخصومات الحزبية هي التي كانت توجه
الشعر والأدب.

وكان لعبد الملك خاصة مجالس أدبية
مشهورة تروى فيها الأشعار فينقدها هو أو أحد
من جلسائه ويدور النقاش حول هذا النقد، وكانت
تعطى الأحكام على الشعراء في هذه المجالس
فترفع من شأن هذا وتحط من ذاك، ولقد أصلح
عبد الملك بيتاً من الشعر للشاعر نصيب وحكم
على شبيب بأنه أشعر من الأخطل وجريـر في
مجلس عبد الملك وكانا لا يعرف أحدهما الآخر
فلما تعارفا تنابذا بالكلام ومنع الخليفة جريراً من
السطو بالأخطل فخرج مغضباً وخرج وراءه
الأخطل، ولكن الأخطل لم يجرؤ على لقائه بعد
خروجه.

كما اجتمع في مجلس عبد الملك في
دمشق عمر بن أبي ربيعة وكثير وجميل، وقد
فضل عليهما ابن أبي ربيعة، وكان الأخطل كثير
الإدلال على ما يبدو بعطف الخليفة عليه لأنه
شاعره السياسي مما جعله يبالغ في الهجوم على
الشعراء وجرحهم في أقواله. ولا ننسى بهذه
المناسبات كلها أمداح الفرزدق للوليد وسليمان
وعمر بن عبد العزيز من خلفاء بني أمية فقد كان

لهذا الشاعر لون خاص يطرب له أهل البداوة
وأصحاب اللغة.

وكان الوليد بن عبد الملك خليفة أديباً
راعياً للشعر والأدب وكان شاعره عدي بن الرقاع
كما مدحه الأحوص الشاعر، ولقد لجأ إلى الشعر
في قضاء مشاكله السياسية على عادة الكثير من
الخلفاء فأستعان بالشعراء على خلع أخيه سليمان
والبيعة لأبنة عبد العزيز وأغرى جريراً بأن يقول:

إلى عبد العزيز سمت عيون
الرعيـة إذ تخيـرت الرعاء
رأوا عبد العزيز ولي عهد
وما ظلموا بذاك ولا أساءوا

ولكن الوليد مات قبل أن تتم هذه البيعة.
ولا ننسى بهذه المناسبة أيضاً تغزل
الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات بزوجة الوليد
الشهيرة (أم البنين) وقصة وضاح اليمن الشاعر
معها أيضاً، وكان ابن الرقيات يتخذ هذه الطريقة
من التشبيب بالنساء الأمويات للإساءة إلى رجال
بني أمية إذ كان ينتمي سياسياً إلى آل الزبير
الخصوم التقليديين للخلفاء من آل مروان.

ولكن قصة وضاح اليمن تغلب عليها
الأسطورية وهي بعيدة كل البعد عن الحقيقة.
واجتمع الفرزدق عند سليمان بن عبد
الملك بنصيب الشاعر وتنابذا بالشعر وتفاخرا وقد
نال نصيب العطاء يومها وأهمل الفرزدق وخرج
هذا مغضباً وهو يردد قوله:

وخير الشعر أكرمـه رجـالاً
وشـر الشعر ما قال العبيد

وهو يعرض هنا بلون نصيب الأسود.
أما أكبر الخلفاء الأمويين شعراً فهو من
غير شك الوليد بن يزيد، كان هذا الخليفة الشاعر
همزة الوصل في فن كان له أكبر الأثر في الشعر
العربي وهو فن الخمرة كان الوليد الصلة الواصلة
بين أعشى ميمور صاحب الخمریات في الجاهلية،
وأبي نواس صاحب الخمریات في صدر الدولة

العباسية، وكان هذا الوليد شاعراً كبيراً عرفت شعره دور دمشق وبساتينها ومواطن لهوها وطربها.

في هذه الفترة بالذات كان الشعراء الكبار قد أسنوا، كان الأخطل والقطامي قد ماتا وكان جرير والفرزدق في نهاية شوطهما، فخلص الشعر الماجن إلى الوليد واستأثر به وعرف عنه وأخذه الشعراء اللذين تولوا إبداع اللون الجديد من الشعر مع النهضة العباسية الجديدة.

وحياة الوليد يمكن قسمها إلى عهدين، عهد الحرمان والألم، وهو عهد خلافة عمه هشام الذي حاول طول مدته أن يحرم الوليد ابن أخيه من حقه في الخلافة والعهد الثاني وهو الزمن الذي أصبح فيه خليفة يستطيع أن يعمل ما يريد وأن ينصرف إلى اللهو والمجون كما يحب، ولقد شمت بوفاة عمه وهجاه حين مات، كان الشعر مسيطراً على كل شيء في حياته حتى كادت تغدوا رسائله الرسمية كلها كتلك الأبيات التي بعث بها إلى أهل المدينة، في شأن من شؤون الخلافة. حتى أنه قام في صلاة الجمعة يوماً فبدأ خطبته بأبيات زاهدة تقيه تحير الناس لها حتى ظنه بعضهم سكران ومطلع هذه البيات:

الحمد لله ولي الحمى
أحمد في سرنا والجهـ

ومما يلوح على شعره أثر الشراب، وشعر المدمنين يدل على إيمانهم في أن شعرهم يكون أقرب إلى البلبلة والاضطراب، فهم لا يستطيعون العناية بشعرهم وتنسيقه وتجويده.

ولكن الوليد وشعره يتعرضان لما تعرض له الكثير من الشعر العربي من شك في صحته وريب في نسبته، فقد ادعى بعض مؤرخي الأدب أن شعر الوليد، لا بل شخصيته ذاتها قد دخلها شيء أو أشياء من صنع المؤرخين الذين يميلون مع السياسة كما تميل.

أما عمر بن عبد العزيز فقد نظر إلى الشعر نظرة كلها زهد وتقية فلم يسمح لغير جرير

بالدخول عليه يوم اجتمع الشعراء ببابه، لأن جريراً كان في شعره عفاً مصوناً وخاصة في قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فأرجعي بسلام

ولقد صور جرير رأي الخليفة العادل في الشعر والشعراء حين خرج من عند الخليفة، فسأله الشعراء ما وراءك؟ فقال: خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإنني عنه لراض.

لما انتهت الخلافة الأموية انحسر ظل الدولة والأدب عن دمشق لينتقل إلى بغداد، وانصرف الناس عن دمشق التي زال عنها اسم العاصمة وانتقل الشعراء حتى الدماشقة منهم إلى مكان الخليفة كما قال بشار:

تسقط الطير حيث ينتثر الحب
وتغشش منبازل الكرماء

فحيث الخليفة يكون الشعراء، لأن الشعر كان في أبرز صفاته وسيلة للتكسب وشعر المديح العربي أبرز شعر في هذه الناحية بكل آداب العالم، فما عرف العالم أبداً شعراً أنصرف أصحابه إلى المديح وأنواعه وأشكاله كما عرف الشعر العربي، والمديح مرتبط بالمدح وأكبر الممدوحين هو الخليفة ومن التف حوله من الأمراء والقواد والولاة، فهناك يجتمع الشعراء ويتبارى أصحاب الفن، تصوير الممدوحين ورسم شخصياتهم، والتاريخ يوضح لنا هذا الرأي أحسن إيضاح، فأبو تمام شاعر دمشقي والبحري كذلك ولكن هذين الشاعرين هجرا دمشق ومن حولهما ليلتحقا ببغداد وليعيشا هناك عيشة الترف والهناء ولقد مات أبو تمام شاباً ودفن في الموصل، أما البحري فقد عاد إلى منبج بلدته بعد أن هزم وانقطع عن قول الشعر إلا قليلاً، والمتنبي عكس الرحلة فقد ترك العراق ليلتحق بحلب حيث سيف الدولة وبدر بن عمار وغيرهما من الممدوحين الذين كانوا يغدقون عليه

العطايا والمنح، هذه قاعدة الشعر في ذلك الزمن، المدح أولاً لاكتساب العيش، ثم تأتي بعده بقية فنون الشعر التي يخلو الشاعر فيها إلى نفسه كفنان يتحدث عن هواجسه الشخصية، وأحلامه النفسية التي تنبثق عن ذاته.

وأصبح الشعر في العهد العباسي يرد إلى دمشق مصادفة فقد يمر بها شاعر عن عرض، وقد يقصد مراح إلى أحد ولاتها ليمدحه، وقد يسافر الشاعر فيزور دمشق ليبقى فيها ليلة أو بعض ليلة فيعجبه هواؤها وماؤها، وربما وفق إلى جلسة غنائية فذكرها في شعره كما نشاهد أثر ذلك في دواوين الشعراء العباسيين الذين لم يعيشوا في دمشق ولكنهم عرفوها وعرفوا ما فيها من نعم وحسنات.

على أن الشعراء العباسيين في العراق ظلوا يذكرون دمشق بخير ويعترفون بأنها كانت مصدر الشعر الذي أتاهم وخاصة في لون الشعر الجديد الذي غمر الشعر العباسي كله وكان اللون البارز فيه وهو شعر الخمر، ولن ينكر أحد أن الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الدمشقي هو أستاذ مسلم بن الوليد وأبي نواس من زعماء الخمرة ببغداد وما كاد ينتهي العهد الأموي حتى أصبح للشعر الشامي الدمشقي مزية بل مزايا يفضل بها على شعر المناطق الأخرى بشهادة أصحاب الرأي والحجة والمنطق، فهذا أبو منصور الثعالبي صاحب (يتيمة الدهر) وهو من علمت مكانة ومحلة يقول بأن شعراء الشام:

"اشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام).

ويعزو هذا الأديب سبب التفوق لقرب سكان الشام من المواطن العربية الأصيلة، ولاسيما منطقة الحجاز، وبعدهم عن مناطق العجم مما حفظ أسنتهم من (الفساد العارض) الذي أثر في السنة أهل العراق (بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم).

فإن موقع الشام، وخاصة دمشق، بين الحضارة والبادية جعل سكان هذا القطر الشامي يأخذون من هذا الجانب ومن ذلك مقدار حاجتهم فظلت آدابهم وطباعهم معتدلة كاعتدال أقاليمهم.

وقد لاحظ الأدباء ومؤرخو الأدب أن الأدب الدمشقي قد كان أكثر ثقافة من آداب المناطق العربية الأخرى، ويقصد بذلك إلى أن الشاعر الشامي لا يلقي الشعر على عواهنه بل يعود إليه ليهذبه ويقوم من اعوجاجه وقد وصف عدي بن الرقاع الشاعر الأموي الدمشقي هذا الجهد الذي يبذله الشاعر الدمشقي في سبيل تثقيف شعره وتقويمه فقال:

وقصيدة قد بت أجمع بينها
حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قنانه
حتى يقيم ثقافته منادها

وانظر إلى عناية هذا الشاعر بشعره وإلى هذا الرأي الفني الذي ارتآه في شعر (كثير) الشاعر المعروف، قال:

"هذا شعر حجازي مقرر إذا أصابه قر
الشام جمد وهلك"

وانظر أيضاً إلى إحساس أبي تمام في أثر الإقليم بالشعر وتغير الشعر بحسب التربة والهواء في قوله ويصف شعره:

قد ثقفت منه الشام وسهلت
منه الحجاز ورقفته المشرق

فالشام مختصة بالتثقيف والتهديب والتقويم لذلك فإن الشعر الشامي يمتاز بهذه الصفة التي جعلته أسير على اللسان وأعلق بالأذهان.

ولقد اتخذ الشعراء الشاميون الأدب مهنة تضاف إلى شاعريتهم فقد ألف كثيرون منهم كتباً بعضها يتعلق بالشعر وبعضها لا يمت إليه بسبب كما صنع العتابي وأبو تمام والبحري وغيرهم.

وكانت الطريقة الشامية في الشعر تعني عند مؤرخي الآداب طريقة الجزالة والعذوبة والسلاسة مما رأيناه واضحاً ظاهراً في شعر البحري، وكان الذي يتخذ هذه الطريقة من شعراء

الأقطار الأخرى ينسب إلى الشامية، فقد وصف صاحب الأغاني ديك الجن بقوله:

"أنه يذهب مذهب الشاميين في شعره وكان الثعالبي يعجب بطريقة الشاميين المثلى التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة".

وكان الخوارزمي يقول:

"ما فتق قلبي وشحذ فهمي وصقل ذهني. إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية..."

ويجد قارئ الأدب في العصر العباسي مجموعة من الشعراء الشاميين امتازوا بالصفات الفنية التي أشرنا إليها آنفاً ومن أبرز هؤلاء: العتابي، أبو تمام البحتري، ديك الجن وغيرهم، وهؤلاء كلهم كانوا يعنون بالصناعة في اللفظ والأسلوب مع السعي إلى التجديد في المعاني وإن كانت المعاني الجديدة مورداً عاماً للناس جميعاً كما يرتنون.

كما قال أبو هلال العسكري الأديب الناقد:

"المعاني مشتركة بين العقلاء وإنما تتفاضل الناس بالألفاظ ولكن شعراء الشام، مع كل ما مر بك من صناعتهم لم يقصروا في إيراد المعاني المخترعة والأفكار المستجدة".

ومما لاشك فيه أن شعراء الشام قد تولوا زعامة الشعر في القرن الثالث للهجرة بطريقتهم الشامية التي أشرنا إليها آنفاً والتي تتلخص بالثقافة والعلم والجزالة والعذوبة.

ولعل من أبرز شعراء الشام ديك الجن الذي لم يحفظ التاريخ إلا النذر اليسير من شعره، فهو حمصي المولد أو هو قد ولد في سلمية على رأي بعض المؤرخين، ولقد كان يعتبر أكبر شاعر شامي في عصره حتى أن أبا تمام، على جلالة قدره لم يكن يذكر معه إلا عرضاً لأنه أستاذ أبي تمام وأبو تمام أخذ عنه الكثير من شعره وربما قيل أن ديك الجن قد أعطاه شيئاً من شعره يتكسب به أول أمره، كما ساعد أبو تمام البحتري في مطلع شبابه وحين التقى به في حمص. وقد قصد أبو نواس ديك الجن حين مر بحمص وحرص على مواجهته وأعترف بإعجابه بقوله:

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

ويأتي بعده أبو تمام وهو من أهل حوران القريبة من دمشق ولكنه عمل صانعاً في هذه البلدة وفيها أفاد بعض الأدب غذى به قريحته المشبوبة وموهبته الخصبة، ثم انتقل إلى مصر ثم إلى بغداد حيث بنى مجده الباذخ حتى جبيت إليه أعطيات الشعراء في عصره.

كان بدء نبوغه في دمشق، وفي مصر كان يتشوق إلى بلده فيقول هذا القول الرقيق:

فجار دمشق كلها جود أهله بأنفسهم عند الكريهة والبذل فلم يبق في أرض البقاعين بقعة وجاد قرى الجولان بالمسبل الهطل بنفسي أرض الشام لا أومن الحمى ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل

ويقول متشوقاً:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط أخواني

وأشتهر أبو تمام باختراعه المعاني وبميله إلى الصناعة التي كان أول من أجاد فيها هو وزميله مسلم بن الوليد، كما اشتهر البحتري، الشامي الآخر، بالديباجة الرائعة واللفظ الجميل المنعوم.

والبحتري العظيم أيضاً شامي الأصل فقد ولد في منبج، وامتدح أمير حمص يوم التقى بأبي تمام وطلب الرغد عند أهل المعرفة ولكن بغداد العاصمة اجتذبت كصاحبه وأستاذه فذهب يمتدح الخلفاء ليثري ويغنى ثم يعود إلى بلده الأول. ولكنه زار دمشق يوم زارها المتوكل وقال فيها شعراً من خير ما نظم هذا الشاعر الكبير، وانظر إلى

وقوله في علوة:

سرى من أعالي الشام يجلبه الكرى
هبوب نسيم الـروض تجلبه الصبا

واستمع أخيراً إلى وصف الشام الذي لم
يجاره به أحد:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفي لك مطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً
ويصبح النبات في صحرائها بددا
فلسبت تبصر إلا واكفاً خضلاً
أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا

وهذا المتنبي أيضاً رغم أنه كوفي الأصل
إلا أنه تأثر بالأدب الشامي والإقليم الشامي فهو إذا
تغزل، على قلة اهتمامه بالغزل، لا بد أن يذكر
الشام ولبنان الذي هو جزء من الشام أيضاً فيقول:

شامية طالما خلوت بها
تبصر في ناظري محياها
كل جريح ترجى سلامته
إلا فؤاداً رمته عيناها

ثم يذكر أماكن في بلاد الشام:

أحب حمصاً إلى خناصره
وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبـ
ننان وتغري على محياها

والمتنبي حين يذكر الأماكن الدمشقية يذكر
بها مواطن شبابه وأيام نبوته الأولى رغم انشغاله
بالعظمة عن كل شيء سواها، فكل شيء في حياة

قد رحلنا عن العراق وعن قطبها النكد
حبذا العيش في دمشق إذا ليلها برد

وكان دائم التشوق إلى الشام فاسمع قوله
الرائع:

كم نظرة لي حيال الشام لو وصلت
روت غليل فؤاد منك ملتاح

وقوله:

حنت ركابي بالعراق وشاقها
في ناجر برد الشام وريفه

وقوله:

شاقني بالعراق برق كليل
ودعاني للشام شوق دخيل

وقوله في سنيه الشهيرة:

واشترائي العراق خطاة غبن
بعد بيعي الشام بيعاة وكس

وهذه الأقوال تثبت لنا قول الكثيرين ممن
عاشوا في دمشق أن هذه المدينة لها اثر في دم
ساكنها تجذبه إليها إذا ابتعد عنها حتى يظل إليها
في شوق دائم وحنين لا ينقطع. وكثيراً ما عاد هذا
الشاعر إلى ذكر دمشق كلما حز به أمر أو نزل به
يأس كقوله للفتح بن خاقان:

رأيت العراق ناكرتني وأقسمت
علي صروف الدهر أنشاما

أو في قوله يتشوق إلى حبيبته:

كم نظرة لي حيال الشام لو وصلت
روت غليل فؤاد منك ملتاح

المتنبي الفنية يأتي عرضاً إلا ذكره لنفسه وآماله في الحكم والولاية.

وقفت بنا عجلة الشعر العربي عند المتنبي وأبي العلاء لنبدأ عهداً جديداً من التفهق السياسي يتبعه تفهق أدبي وارتكاس شعري فقد أحاط التكلف بالشعر واستولت الصناعة على الوحي الفني والإلهام، وتغلبت على البلاد العربية الدولة الإخشيدية والفاطمية والأيوبيّة، والمماليك الجراكسة ثم الأتراك، حتى جاء العهد الأخير في مصر عهد محمد علي، الذي كان فاتحة لتطور جديد، وتقدم مستحدث. ولعل من أبرز العهود التي مرت بدمشق من الناحية الأدبية عهد صلاح الدين الأيوبي فقد كان هذا الرجل الكبير ولوعاً بالأدب مشجعاً للشعراء والأدباء، وكان صلاح الدين كثيراً ما يستشهد بالأبيات النادرة من الشعر كما كانت تعجبه أقوال كثيرين من الشعراء فيفضل بعضهم على بعضهم الآخر تفضيلاً أدبياً فيه كثير من الذوق الأدبي الرفيع. وكان إذا كتب ضمن رسائله الشعر الجيد، وكانت مجالسه عامرة بالأحاديث الأدبية كما كان له ولع ببعض الدواوين الشعرية من مثل ديوان الشاعر الفارس أسامة بن منقذ، وكان يحفظ الكثير من ديوان الحماسة لأبي تمام ويستشهد بالأبيات في المناسبات، وقد مدحه مرة شاعر فأعطاه ألف دينار وهو عطاء كبير بالنسبة للزمن الذي عاش فيه صلاح الدين.

وكانت لصلاح الدين عادة تدل على الالتفات والتقدير للأدب والشعر فقد كان ينظم المهرجانات الأدبية بعد كل عمل حربي يقوم به كما فعل بعد فتح بيت المقدس وقد كان أبرز الشعراء الذين اشتركوا بالاحتفال بهذا النصر المبين العماد الكاتب، والمهذب بن أسعد وأحمد بن علي بن أبي زنبور وعبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسي ومحمد الحلبي المعروف بالجواني وغير هؤلاء كثيرون كما مدحه شعراء من خارج القطر الشامي من مثل سبط بن التعاويذي وابن الساعاتي والجويني.

ولما جلس صلاح الدين في دار العدل بدمشق يعيد النظر في الأمور التي كانت تجري في غير مجرى العدل وينظر في الضرائب الكثيرة التي

فرضها الولاة على سكان دمشق بعد موت نور الدين الشهيد جاءه الشعراء يمتدحون سهره على العدالة ومنهم الشاعر (سعادة بن عبد الله) الذي قال:

في دار عدل منذ طلعت بأفقهها
بدرأ جلوت الظلم عن سكانها
فبقيت معتصماً بتأجج بهائها
في دست مجلسها وفي إيوانها

ولقد مشى الشعر خلف صلاح الدين يسجل أعماله العظيمة وما يبذله من جهود في سبيل توحيد سورية ومصر حتى اتحدا تحت رايته، بل لقد ظل الشعر يتتبع خطا صلاح الدين كل حياته.

ومن كبار شعراء صلاح الدين فتيان الشاغوري (الدمشقي الذي كان معلماً في بلدة الزبداني وله ديوان كبير مخطوط وقد نظم شعراً كثيراً في مدح صلاح الدين فوصف حصار مدينة صور ووصف معركة حطين الشهيرة) فيقول فيها:

لا يصد منك المسلمون فكم يبدأ
أوليئهم معروفها لم تنكر
أمنت سربهم وصننت حريمهم
ودرأت عنهم قاصمات الأظهر

ولقد مدح صلاح الدين الأمراء من الشعراء مثل أسامة بن منقذ لأن فتوحات هذا الزعيم البطل كانت نصراً للمسلمين والعرب كافة لذلك فرح بها الناس على اختلاف نحلهم وشارك في وضعها الشعراء على تباعد بلادهم.

وكذلك كان موته كارثة أصابت العالم الإسلامي كله حتى لم يحص الشعراء الذين تناولوه رثاء وبكاء وندبا وشجواً، وكان هذا الشعر الباكي الحزين فيه كل الصدق والإخلاص. لأن صلاح كان يعتبر بطلاً مسلماً مجاهداً لا يخلفه الزمان.

ونلاحظ أن شعر هذا الرثاء كان خالياً من المحسنات اللفظية التي غمرت الشعر هاتيك الأيام لأن صدق الشاعر لا يترك له مجالاً للتأنق واللهو في أمور أخرى لا تمت إلى قلبه بصلة وإذا

رأينا في هذا الشعر مظهراً من مظاهر البساطة فلأن الشعراء قد كانوا -- على الغالب -- من الطبقة المتوسطة ولم تكن بينهم عبقرية من العبقریات الكبرى من مثل المتنبي أو أبي تمام أو المعري.

ولقد أخذ الشعر العربي كله، وفي جملته، الشعر الدمشقي والأدب الشامي، يتأخر بسرعة تبعاً لتأخر العرب سياسياً بعد الضربات التي أصابتهم خلال الحروب الصليبية وأخذت الصناعة اللفظية والكلفة البيانية تظهر واضحة على الآداب كلها بحيث جعلت من نتاج القرائح مادة للتلاعب والتزويق والبهرجة مما يخالف طبيعة الشاعر ويقيّد ملكاته.

وفي العصر المغولي أخذ اللحن يدب إلى هذا الشعر وراحت اللغة العامة تحل في كثير من الألوان الأدبية محل الأدب الفصيح وأخذ بعض الشعراء من هؤلاء في ديار الشام ينظمون ما يسمى بـ (القصيدة) أو (القريض) والنوع الأخير كان ينظم على أوزان بعضها سرياني الأصل.

ومن الشعراء البارزين في دمشق خلال هذه العهود:

عفيف الدين التلمساني وابن حجة الحموي، ابن سودون البشناري.

ثم جاء العصر العثماني منذ عام ١٥١٧م، يوم دخل السلطان سليم دمشق فاتحاً وقد امتاز هذا العصر من الناحية الأدبية بشيوع التصوف وتعدد الطرق الصوفية وقد عرفت دمشق عدداً من شعراء الصوفية مثل عبد الغني النابلسي وأستاذه محيي الدين بن عربي وانحط الأسلوب الإنشائي حتى أوشك أن يكون عامياً كما في قصص بني هلال وما شابهها، وازداد التفهقر الأخلاقي حتى ظهرت كتب كثيرة في الخلاعة والفحشاء والسفاهة والمجون الصريح، وكسدت سوق الشعر الصحيح والنثر البليغ فقد مال الناس إلى الأدب الخليع العامي الذي يناسب العقول التي ابتعدت في هذا العصر عن الثقافة والأدب أو علوم اللغة والدين، هذه العلوم التي كانت مصدراً لكل الفنون الأدبية في العهود السابقة، في هذا العهد نشأ في دمشق شعراء لم يبلغوا مرتبة (الشاعرية) فلجئوا إلى المحسنات البديعة الثقيلة والأحاجي والتواريخ مما

كان يسر له القراء البسطاء هاتيك الأيام فقد تراجعت الثقافة تراجعاً كبيراً، وكانت دواوينهم طافحة بالأمداح النبوية ومشايخ الطرق ثم الولاية والموظفين حتى آخر آذن في الدولة وقد ذهبت هذه الدواوين فلم يهتم لها أحد وإن كانت قد طبعت واقتناها بعض الناس، إلا أن الجيل المعاصر لم يعلم شيئاً عنها لتفاهة ما فيها وهل سمع أحد منا باسم شاعر مثل: شمس الدين الهلالي، شهاب الدين النابلسي، درويش الأرتقي أبو حفص القبرصي، محمد سعيد السمان.

وقد حوت دمشق في هذه الأيام المظلمة مكتبات كثيرة كان فيها عدد كبير من الرقوق والمخطوطات المكتوبة باللغة العربية الكوفية، والسريانية واليونانية وكان من أشهرها المكتبة التي كانت موجودة في الجامع الأموي إلى جانب قبر النبي يحيى والكتب المودعة في قبة (المال) وقد ذهب أكثر هذه الكتب في حريق الجامع الأموي الذي وقع عام ١٨٩٣ ولم يسلم منها إلا القليل مما كان في قبة المال التي يراها الزائر في صحن الجامع، وقد ضاع الكثير من هذه الكتب، حتى اهتم بعض أهل العلم بجمعها في مكتبة واحدة، وفي زمن مدحت باشا الوالي العثماني الخطير الذي تولى دمشق عام ١٨٧٨م لم يكن قد بقي من هذه المكتبات إلا عشر هي:

المكتبة العمرية، مكتبة عبد الله باشا العظم، مكتبة سليمان باشا العظم، مكتبة ملا عثمان الكردي، مكتبة الخياطين، مكتبة الشميساطية، مكتبة الياغوشية، مكتبة الأوقاف، مكتبة بيت الخطابة.

وقد جمعت هذه المكتبات كلها بأمر مدحت باشا فوضعت في المكتبة الظاهرية التي لا تزال حتى الآن مرجعاً كبيراً للعلماء والمستشرقين نظراً لما فيها من كتب مخطوطة ثمينة.

يضاف إلى هذه المكتبات مكتبات أخرى كانت مبنوثة حول دمشق وفي ضواحيها مثل صيدنايا ومعلولا وبيروت.

ولقد أخذت بذور النهضة الحديثة تنمو وتتكشف ببطء وصعوبة فظهرت المطابع وكانت حلب اسبق من دمشق في هذا المضمار فقد تبين

أن كتاباً طبع في حلب عام ١٧٠٢ وهو تاريخ قديم نسبياً. ثم نشأت المدارس الوطنية ومدارس البعثات الأجنبية وكانت بيروت اسبق من دمشق في هذا المضمار ونشأت فنون جديدة كالتمثيل والصحافة، وكان لدمشق فضل كبير في أنها أنجبت أكبر عبقرية تمثيلية في الجيل الماضي في شخص أبي خليل القباني، هذا الرجل العظيم الذي علم البلاد العربية الغناء والتمثيل والإخراج الفني وعنه أخذ أهل مصر ولبنان، وقد سبق أبا خليل إلى خوض هذا المجال الفني الكاتب الشاعر أديب اسحق القائل هاتيك الأيام:

قتل امــــراً فــــي غابــــة
جنايــــة لا تغفــــر
وقــــتــــل شــــعب آمــــن
مســــألة فیهــــا نظــــر

والبيتان يصوران الحالة السياسية والاجتماعية ورأي الشعب المرهق المقيد بحاكميه وبالمستعمرين الذين كانوا يدسون له الدسائس ويكيدون له في العلن والخفاء. ولكن أديب اسحق وسليم النقاش ويوسف الخياط كلهم لم يتركوا الأثر الذي تركه أبو خليل لأن هؤلاء كانت مهنتهم الأدب قبل التمثيل في حين أن أبا خليل قد جعل من التمثيل فناً يجب تربيته وإدخاله في أذهان الناس.

ولقد ظل الشعر كسيحاً بطيء السير أكثر القرن التاسع عشر ويمكن تحديد هذه الفترة ما بين ١٨٠٥ - ١٨٦٣ وأخذ الشعراء بعد انقضاء هذه الفترة يحسون بالحاجة إلى نظم الشعر دون الحاجة إلى تقييده بالقيود التي كان يرسف فيها في عصر الانحطاط، وقد استفاد الشعراء الجدد من اتصالهم بالنازحين من مصر إلى سورية بزمين محمد علي وإبراهيم باشا ومن غير مصر من البلاد الأجنبية والعربية ولكن الحقيقة التي لا شك فيها أن شعراء الشام في هذه الفترة بالذات كانوا قليلي العدد ولم تكن لهم المكانة اللائقة بمقام دمشق الأدبي وأعزوا هذا المحل في العبقرية الشعرية إلى النكبات التي نزلت بدمشق إذ كانت

هذه البلدة معرضة للصدمة الأولى التي تقصم الظهر وتذهل الفكر حتى انشغل أهلها بما يقيم أودهم بدلاً مما يرفه عنهم أو يدخل على قلوبهم السرور ومن الأدباء في هذه الفترة:

جبرائيل مخلع الدمشقي، وله فضل ترجمة ديوان كلستان لسعدي الشيرازي الفارسي، وسليمان الصولة الدمشقي أيضاً.

وفي النثر لمع نجم أديب اسحق الدمشقي الذي ولد عام ١٨٥٦، وقد عمل موظفاً جمركياً في شبابه ثم رحل إلى بيروت فعمل في الكتابة، وصادق هناك سليم النقاش فألف له بعض الروايات التمثيلية كما عرب روايات أخرى وقد مات وله من العمر ٢٩ سنة فقط وهو يعد بالقياس إلى عصره ذاك عبقرية كان يمكن أن يحسب لها مقام كبير لو أن الأجل طال به.

ولقد عمل كثيرون من الدماشقة في العلم والأدب إلى جانب الشعر الفني ومن هؤلاء ميخائيل مشاققة الذي نبغ في معظم العلوم العصرية وخاصة الطب كما كان بارعاً في الرياضيات والموسيقى، وكذلك الشيخ محمود حمزة أحد أعلام دمشق العظماء في العلوم الشرعية وكان له أثر فعال في تخفيف أضرار ثورة ١٨٦٠ في سورية والشيخ محيي الدين اليافي، ولكن هذا انتقل إلى بيروت وختم حياته فيها وكان من العلماء الأعلام.

ومن الظواهر الاجتماعية التي خدمت الأدب في دمشق خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وجود الأمير عبد القادر الجزائري فقد جمع إليه الشعراء بكرمه وقوة شخصيته وكان من شعرائه أمين الجندي، حسن بيهم، محمود الشعال، إبراهيم الصولة والهالي وغير هؤلاء فكان من وراء ذلك ديوان من شعر المديح الجيد بالنسبة لذلك العهد.

لكن مصر سبقت دمشق في هذه الفترة إلى التقدم والنشاط الأدبي بسبب الحملة المصرية التي فتحت الأذهان على عوالم النهضة الجديدة. غير أن الشعر بقي فترة بعد عهد محمد علي مغنياً بالألفاظ والمحسنات البديعية والتقليد لمن سبق من شعراء عصر الانحطاط ومن هؤلاء الشعراء السيد الدرويش والسيد الخشاب والشيخ شهاب الدين

وصالح مجدي والشيخ محمد عبد المطلب، وكما قلنا فإن الشعر كان عند هؤلاء، كما قال العقاد:

"مسألة لغة وفصاحة لغوية فالتقليد لم يكن في الأسلوب فقط بل في الأغراض أيضاً"

وقد تأثرت دمشق بهذه الموجة ولكن لم يظهر فيها شعراء يحسب حسابهم إلا القلائل من مثل الهلالي ومحمد الحريري وهذان من أصل حموي وفي دمشق ظهر سليم عنحوري وأنيس رزق سلوم وفارس الخوري وسليم الجندي، وعبد القادر المبارك، وأديب التقي البغدادى، وعز الدين التنوخي وكامل القصار وكانوا مقدمة للشعراء الذين ظهوروا في مطلع الحرب العالمية الأولى وفي مقدمتهم خير الدين الزركلي وشفيق جبري ومحمد البزم، ثم تبعهم فيما بعد خليل مردم، وقد فتح هؤلاء الشبان باباً في الشعر جديداً، فقد اطلعوا على شيء من الثقافة الأجنبية وخاصة شفيق جبري وخليل مردم لأن الأول أفاد من الأدب الفرنسي خلال دراسته الثانوية في مدرسة العازارية بدمشق والثاني - خليل مردم - أفاد من الثقافة الإنكليزية لأنه سافر إلى لندن ومكث فيها مدة اطلع خلالها على أدب أمة شكسبير، كما تأثر هؤلاء، ما عدا البزم بشعر شوقي وحافظ ومطران وحاولوا أول أمرهم تقليدهم وهذه الطريقة الجديدة في الشعر الحديث تعتمد على فصاحة الأسلوب من جهة، وبعد هذا الأسلوب عن المحسنات البديعية والتكلف من جهة أخرى، كما حاول هؤلاء الشعراء التحدث عن موضوعات جديدة تناسب العصر، وأبو هذه الطريقة في كل الشعر العربي هو محمود سامي البارودي الذي كان للشعر العربي كما كان (ماليرب) للشعر الفرنسي.

قال ابن رشيق القيرواني حين الحديث عن

المتنبي:

"ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس"

لقد كان وجود محمود سامي البارودي فاتحة عهد جديد في الشعر العربي لأن هذا الشاعر عاد بالشعر إلى العهد العباسي خالصاً من

المحسنات الثقيلة والكلفة المستهجنة، فأصبح به الشعر مرسلأ يسيل إلى التصوير والارتفاع في الخيال الفني فكان في شعره مقدمة لا بد منها لمجيء إسماعيل صبري (الشاعر الذي ابتدع الرقة والفنان الذي جنح الألفاظ الشعرية وخلق الصور البراقة اللامحة) ولكنه كان نبعا صغيراً رقيقاً، وكان كأنه أعلام بمجيء الشاعر العظيم شوقي سيد الشعر العربي الحديث.

وكان حافظ ومطران بمثابة الجناحين الرائعين لشوقي، حافظ بديباجته القوية وسبكه الألفاظ ومطران بمعانيه الجديدة وتجديده العصري، فكان هذا الثلاث هو الذي نقل الشعر من عهد المتنبي وأبي العلاء إلى عهدنا الحاضر.

أفاد شعراء دمشق (الزركلي وجبري والبزم ومردم) من الألوان الشعرية التي جاءت من مصر، فكان الزركلي يمثل الطبع الشعري المرفه والأسلوب الرشيق الحافل بالمعاني والصور، وكان شفيق جبري يمثل الموسيقى اللفظية والمعاني الجديدة، أما البزم فكان متأخراً عن صحبه لأنه انشغل بالأسلوب القديم وأثرت في شعره ثقافته النحوية واللغوية فخرج شعره وعليه مسحة من الكلفة المقبولة إلى حد ما، أما مردم فقد جمع بين الأسلوب والصورة الشعرية وإن كان أسلوبه يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لومضائه الشعرية، وسكت بالطبع الشعراء الذين تقدموا هؤلاء الأربعة سكت فارس الخوري والمبارك والجندي ليتركوا المجال للطبائع الشعرية الجديدة المتدفقة، واحتجوا بما يظهرون إلا في الحالات الخاصة والأزمات السياسية المتباعدة، كما فعل فارس الخوري يوم عودته من المنفى، ويوم مات فوزي الغزي.

وكان الأديب الكاتب في هذا العهد، أو شيخ الكتاب هو الأستاذ محمد كرد علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ورئيس تحرير مجلة (مجلة المجمع) وكان قد وضع مؤلفات كبرى في التاريخ والأدب وأهمها، خطط الشام، وأمراء البيان.

واندلعت نار الثورة السورية وهب الشعراء في دمشق وفي العالم العربي لتأييد هذه الثورة، ومن يقرأ الديوان الذي جمعت فيه هذه القصائد (ديوان الثورة) يشاهد قصائد الزركلي، والبزم، ومردم وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) من شعراء دمشق هاتيك الأيام ومن الظاهرات الأدبية الشعرية تلك الحفلات الخطابية التي كان يقيمها المجمع العلمي العربي في داره وفيها سمع أهل هذا الجيل قصيدة شوقي:

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا
مشت على الرسم أحداث وأزمان

وقد ألقاها نجيب الريس الصحفي
المعروف.

وقصيدة الزهاوي التي قال فيها:

يريدون مني أن أغني باسمهم
وأي هضم باسم أعدائه غني

وقصيدة بدوي الجبل في رثاء المنفلوطي
والألوسي:

الليل بعد السراطين طويل
أو ما لصبغك يا ظلام نصول

وكانت دمشق تحتفل بشوقي كلما أمها
ليشاهد معالمها وكانت خير المجالس تلك التي تعقد
في دار المرحوم الأستاذ فخري البارودي باعث
النهضة الفنية في هذا البلد، ولشوقي قصيدتان
أخريان دعم فيها الثورة السورية يومئذ، إحداها
التي يقول في مطلعها:

حياة ما نريد لها زوالاً
وعيش لا نود له انتقلاً

وقد قالها في ذكرى استقلال سورية وذكر
فيها يوسف العظمة وواقعة ميسلون والقصيدة
الثانية قالها شوقي بعد انقضاء الثورة والمع فيها
إلى نبوءته عن الثورة في قوله من قصيدته
السابقة:

خميلة الله وشيئتها يدها لكم
فهل لها قيم منكم وجنان

لذلك قال في قصيدته الثانية:

غمزت إباءهم حتى تالفت
أنسوف الأسد واضطرم المدق

وقد دعيت قصائد شوقي في دمشق بـ
(الشاميات) لأنها صورت فترة من فترات الجهاد
الأدبي الشعري كما كانت هذه القصائد فتحاً جديداً
في عالم الشعر السياسي الجديد.

بعد هذه الفترة جاء الشعراء الشباب
ومنهم أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي) وجميل
سلطان، أنور العطار، أمجد الطرابلسي، زكي
المحاسني، وقد كرمهم المجمع العلمي بحفلة
أقامها تشجيعاً لهما حوالي ١٩٢٧ - ١٩٢٨م،
كما ظهر بعد هؤلاء عمر أبو ريشة الذي كان فتحاً
جديداً في الشعر الحديث وأعقبه نزار قباني وعمر
النص ولكل منهما لون خاص ولكن نزاراً مال إلى
التجديد، وحوالي هؤلاء أدباء بارزون أيضاً منهم
سليم الزركلي الذي شارك في كثير من المهرجانات
الأدبية والدكتور عزة طباع الموسوعة العلمية
والأدبية، والذي يعتبر بحق راوية هذا الجيل بما
يحفظ من أدب وشعر قلما يماثله فيهما أحد، أما
شعره فشعر الرجل العالم الذي يحب الضبط
والمنطق مع ديباجة أخذ أكثرها عن صديقه أبي
تمام والبحثري على اختلافهما.



الرحيل إلى البداية

شعر الدكتور عمر النص

لبي صبوئها في الليل يعبرُ مجَّهَدا
فأرأف بها! أني أريدك سيِّدا

أنالِم أقلُّ للبحر أين منائري
فمتى أمد لها الضلوع لتولدا

أعرفتها؟ أني أحسُّ بنارها
سالت وراء الشمس موجاً أسودا

لم أنس يوماً أنها سكنت دمي
فاجعل لها فوق المحاجر موعداً

كم نخلية في البحر تخبِ ناظري
فأكاد أصرخ بالنجوم لتشهدا

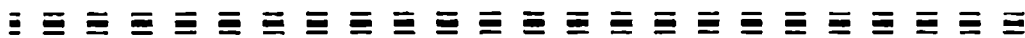
أشـتاقها فتهمُّ فلكي كلُّها
وتزيح عن غديها الستور لتشردا

عجباً أحاول أن أمدَّ لها يدي
فأرى الظلال تريد أن تبتددا

هذي الحدائق في دمي ترتابُ بي
فانعم بها من قبل أن تتمردا

ضاقتُ بما وعدتُ فخافيت يومها
وأتى الخريف فلم تشأ أن تهمدا

كم أومأت للشمس فاكتأبت لها
حتى أفاق أريجها فتنهدا





وَكَيْانَ رِيحاً قَدْ تَطَاوَلَ أَسْرُهَا
مَرَّتْ عَلَى الْأَفْقِ السَّحِيقِ فَأَرَعَدَا

وَهَوَتْ تَعَانِقُ فِي السَّيْكِينَةِ ظِلَّهَا
فَرَأَيْتُ نَارِي أَوْشَكَتُ أَنْ تَحْمَدَا

وَكَيْانَ فِي فَمِّهَا حَكَايَةَ غَيْمَةٍ
حَلَمَ السَّرَابُ بِهَا فَصَارَتْ مُورَدَا

نَادَيْتُهَا فَأُضَاءَ لَيْلِي بِرَقِّهَا
وَتَرَكْتُهَا تَعِدُّ السَّرَابَ فَعَرَبَدَا

وَنَذَرْتُهَا لِلْبَحْرِ يَمْسَحُ جُرْحَهَا
فَأَسْأَلُ دَمِي لِمَ رَدَّهَا مَتَوَعَّدَا

-٢-

أَنَا لَمْ أَقْلُ لِلرِّيحِ أَيْنَ سَوَاحِلِي
فَاسْمَعْ إِذَا مَرَّتْ أَنْيْنَ سَلَسَلِي

هَذَا الْمَدَائِنُ هَاجَرَتْ طُرُقَاتُهَا
فَمَتَى أَجُوزُ إِلَى الْبَحَارِ مَجَاهِلِي

يَا ظَلَمَةَ لِمَ أَنْيْسَ أَنْيَ طِفْلُهَا
هَلْ تَعْلَمِينَ لِمَنْ أَضَاءَتْ أَصَائِلِي

الْحَلَمُ يَهْرُبُ وَالْغِيَاهُ بَ تَغْتَلِي
وَالْأَرْضُ تَفْسَحُ صَدْرَهَا لِمَعَاوِلِي

وَحُطَّيَايَ تَعْلَمُ أَتْنِي أَنْكَرْتُهَا
فَأَخَافُ أَسْأَلُ عَنْ صَبَايَ الرَّاحِلِ





أَهْنَاكَ نَهْرُ آخِرٍ لَمْ يَحْتَرَقْ
وَعَمَامَةٌ أُخْرَى تَشْوِقُ مِنْ أَهْلِي
يَا لَفْظَةٍ خَضِرَاءَ خَفْتُ وَعَوْدَهَا
مَآذَا تَوْسُّوسُ لِلرَّمَالِ قَوَافِلِي
الْأَوْجُهُ الْخَرَسَاءُ تَزْحَمُ نَظْرِي
فَأَعْيِدْهَا أَنْ تَطْمَئِنَّ لِبَطْنِي
أَنَا أَعْيِشُ بِذِكْرِيَاتِي وَحَدَا
فَتَكَادُ تَشْرُقُ بِالسَّرَابِ خِمَائِلِي
وَكَا أَنْ نَارِي أُخْمِدَتْ جَمْرَاتُهَا
فَأَسَلْتُ فَوْقَ رَمَادِهَا جَدَائِلِي
وَتَرَكْتُهَا هَبَّةً لِرِيحِ طَلْقَةٍ
لِحِكَايَةِ شَرِبَتْ مَدَادَ رَسَائِلِي
لِحَقِيقَةٍ أُوشِكْتُ أَطْرُقُ بِأَبْهَامِي
فَتَنَاقَلْتُ عِنْدَ اللَّقَاءِ أَنْفَامِي
وَتَدَحْرَجْتُ فَوْقَ الْحَجَارَةِ قَطْرَةً
حَلَمْتُ بِهَا شَفَةَ السَّرَابِ الذَّاهِلِ
يَا مَوْجَةً عَبَّرتُ بِبَابِي فَجَاءَتْ
فَهَمَمْتُ أَفْتَحُ لِلْسَّيُولِ مَنَازِلِي
أَنَا وَالْخُرَافَةُ تَوَامِلَانِ تَعَانَقَا
فَلَيْسَ هَذَا الْبَحْرُ أَيُّنَ سَوَاحِلِي





- ٣ -

لا تسألي لم لا أسأها نجر نجرها
إنسي لمحت على الأعاصير رشمها
يا صخرة في البحر تخذل نياظري
هل خانت الجزر البعيدة حلمها
الأرض؟ ما للأرض شاب نهارها
وأنتى المساء إلى الشوموس فغمها
هذي رؤاي تضج فوق مجاري
فترقبي أني أعانق غيمها
نسيت صباي فسأل نهر شرارها
ودنا يمد لها اليدين فضمها
ما بالها شربت فضاق بها فمي
فشكت كآبتها وبثت غمها
هل طالعت غدها فخافت غربه
مازلت أحمل في الجوانح سقمها
أنا في الغياض قد لمحت ممالك
فوقفت عند الباب أنزع ختمها
وسألت أي صروحها عبرت دمي
فرأى مرآتها تضج فأمها
وهممت أدخلها فسححت غيمة
سفحت على تلك المدائن همها





وهممت بالأشياء أنحسبت شـكلها
وأصوغ نبرتها وأخترع اسمها
وكان صوتي هزها فاستيقظت
فدافعت في الغيب تشهد يومها
وتعيش دنياها التي حلمت بها
وتزيح ظلمتها وتفتح كرمها
يا صخرة في البحر تخذل ناظري
ما للروى لم توت غيري وهمها
اليوم تنكشف السماء فهل لي
إنني عرفت متى أجاور نجمها

-٤-

أنسيتها؟ إن الأعاصير تجرأ
فأراف بها.. عل الموانئ تغفر
القلب ظام واليـدان تعتربا
فبأي حلم في الغياهب تجهـر
الغرفة الخرساء صارت غابة
يخبو بها ضوء وتعصف صرصر
صدت نوافذها وأن جدارها
فحسبت صوتي خلفها يتحجر
عجبا! أحلم بالنجوم فتختفي
وأمد طرفي للسماء فتكدر





فأكاد ألهستُ حينَ يومض وجهُها
وأكاد أصرخُ عندما تستكبرُ

هذي الخمائيل قد تنسأثر طيبها
فمتى يرق لها الشتاء فتزهرُ

ولمن تمسُدُ هباتها؟ ألبارق
ما زال فوق ضلوعها يتكسّرُ

أزف اللقواء فدعُ سرابي يهتدي
وانظر إذا ما سال ماذا يذكرُ

ودع السينين تمرُّ بي.. فلعلها
عرفت متى احترقت لذي الأبحرُ

واسأل ألم أسفح بهيكلها السينا
وأقل لناري: ها هنا نتطهرُ

هذي السدود أهدوها فأرى غدي
فأكاد منه إلى البدايات أعبرُ

فأحنُّ للزمن الذي لا ينتهي
وأثوق للجسر الذي لا يكسرُ

وأظلل أحملاً للصحارى زادها
حتى تسيل على حشاها الأنهرُ

فأراف بأهدابي إذا انحسر المدي
إنني عرفت متى تشيب الأعصرُ



قال أديب إسحاق:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

وأنا أقول:

أسر امرئ في دولة جريمة لا تغتفر
وقصف شعب ثائر مسألة فيها نظر

في هذه الظروف العصيبة التي تمرّ بها
أمتنا العربية والعالم أجمع من أجل قضية
فلسطين عامة والقدس خاصة، حيث التطرف
العالمي الذي يؤيد الكيان الصهيوني بكل عمل
وبكل وسيلة، ولا سيما وأن قضية (جلعاط
شاليط) أخذت حيزاً كبيراً في المجتمع الدولي
مع العلم أن أحد عشر ألف أسير فلسطيني
يقبعون في السجون الإسرائيلية دون أن يسأل
عنهم أحد ولا حتى (بابا الفاتيكان) رجل المحبة
والسلام، ورمز الحرية والديمقراطية، فتسود
في عينه الحياة، لأن العدل يفترض أن يتحدث
عن الأسرى الفلسطينيين، كما تحدث عن
الأسير الصهيوني، فكانت أحكامه الجائرة
صفحة كبيرة على وجهه، وليس كما حدث لعمر
بن الخطاب الذي أتاه رسول (كسرى) وراه
نائماً على الأرض فقال له: حكمت فعدلت، أمنت
فنمت، وقد تناول حافظ إبراهيم هذه الحادثة
بأبيات رائعة ردّتها الأجيال حيث قال:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً
بين الرعية عطلاً وهو راعيها

يا قدس..

يا مدينة الأنبياء

بقلم:

أحمد الخوص

وعهده بملوك الفرس أن لها
سوراً من الجند والأحراس يحميها
رأه مستغرقاً في نومه فرأى
فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً
ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره
من الأكاسير والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلاً
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم
فمنت نوم قريير العين هانيها

ولئن كانت أخلاق صاحب العهدة العمرية
التواضع والبساطة التي جعلت رسول كسرى
يمدحه بما فيه فقد أفادت العهدة العمرية بأن
أعطت المسيحيين الأمان والاطمئنان على
أنفسهم وأموالهم وأملأهم، وألا يصلي
المسلمون في كنائسهم، كما امتنع نفسه عن
الصلاة في الكنيسة لاعتقاده أن (لا إكراه في
الدين) وكى لا يتخذها المسلمون مصلى بعده،
وألا يساكنهم اليهود.

وحقاً ما قاله غوستاف لوبون: "ما عرف
التاريخ فاتحاً أرحم من العرب".

وإذا كان حديثنا في هذا المقال عن القدس
في شعر نزار قباني فسوف نرى المأساة التي
تعيشها فلسطين والقدس في أقدم مقدساتها،
حيث يقول:

سألت عن محمد..

فيك وعن يسوع

يا قدس.. يا مدينة تفوح أنبياء
يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء
يا قدس.. يا منارة الشرائع.

هذه المدينة المقدسة تنوء الآن تحت وطأة
الاحتلال الصهيوني وتعاني من التهويد
المستمر والنزوح القسري للمقدسيين، بالإهمال
المتعمد، والاعتداء على المسجد الأقصى
وكنيسة المهد، فمن لهذه المدينة؟ ومن ينقذ
مقدساتها؟ يقول نزار:

يا قدس.. يا مدينة تلتف بالسواد

يا قدس.. يا مدينة الأحزان

من يوقف العدوان؟

من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟

من ينقذ الإيجل؟

من ينقذ القرآن؟

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح؟

من ينقذ الإنسان؟

ويرى نزار في أهل فلسطين شبابها،
نسائها الأمل في إنقاذ القدس بل فلسطين كلها
فيقول في قصيدته منشورات فدائية على
جدران إسرائيل:

المسجد الأقصى، شهيد جديد

ونضيفه إلى الحساب العتيق

وليس النار، وليس الحريق

سوى قناديل تضيء الطريق

* * *

نساؤنا..

يرسمن أحزان فلسطين على دمع الشجر
من فسحة الدار، ومن مقابض الأبواب
من ورق التوت.. ومن شجيرة اللبلاب
من بركة الماء..

ومن ثرثرة المزراب

أفتح باب منزلي..

أدخله. من غير أن أنتظر الجواب

لأنني أنا السؤال والجواب

ثم يلتفت نزار قباني لاستجلاء الوضع
العربي الذي أصابه الصمم والعمى فأضاع
دربه، وينقل صور المأساة الفلسطينية في كل
المدن والبلدات، وقد استعمل أداة الشرط (لو)
حرف امتناع لامتناع و (أن) حرف التوكيد
للتمني، وكأنما يقرر مسبقاً، أن لا حياة لمن
تنادي، إلا من قصيدة شعرية من هنا أو هناك،
أو دموع مشفوعة بالدعوات، فيقول:

لو يكتب في يافا الليمون، لأرسل آلاف القبلات
لو أن بحيرة طبريا تعطينا بعض رسائلها..

لاحترق القارئ والصفحات..

ولو أن القدس لها شفة، لاختنقت في فمها
الصلوات..

لو أن..

وما تجدي (لو أن..) ونحن نسافر في المأساة
ونمدُّ إلى الأرض المحتلة حبلاً شعري الكلمات
ونمدُّ ليافا منديلاً طرّزَ بالدمع.. وبالدعوات

يا بلدي الطيب.. يا بلدي

ذبحتك سكاكين الكلمات..

ومع مرور السنين صارت قضية فلسطين
وقدسها الشريف كأي برنامج إذاعي، أو
مناسبة كالأعياد، وكأنها حقيبة ليس لها
صاحب فيقول نزار في قصيدة (الخطاب):

كنت بعد الظهر في المقهى..

وكان البهلوان..

يلبس الطرطور بالرأس..

ويلقي كل (ما يطلبه المستمعون)

عن فلسطين التي صارت مع الأيام،

(ما يطلبه المستمعون)

واحتفالاً مثل عيد الفطر.. والأضحى

أراجيح، وكعكاً، وفطائر..

وزيارات مقابر..

وتذكرت فلسطين التي صارت حقيبة

ما لها في الأرض صاحب.

وإن مرور الزمن وفعل السياسات الدولية
والمؤيدة لإسرائيل، وبعض الحكام المتخاذلين
من العرب سعت لتخدير الذاكرة العربية،
بـ(إننا عائدون) (غداً سنعود) (القدس عربية)
لكن ذلك كان شعاراً وكلاماً يعطى كجرعات
مهدئة ليس وراءها طائل. يقول نزار قباني:

خذروني..

بملايين الشعارات.. فنمت

وأروني القدس في الحلم.. ولم

أجد القدس، ولا أحجارها، حين استفتت

فاعذروني..

أيها السادة، إن كنت ضحكت..

كان في ودِّي أن أبكي..
ولكني ضحكت..

ويرى نزار كما يرى غيره من الغيورين
العرب، ومن الفلسطينيين المخلصين لقضيتهم،
والجادين في تحرير أرضهم أن الطريق
لاسترجاع فلسطين هو طريق النضال والكفاح،
لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فيقول:

يا أيها الثوار..

في القدس، في الخليل، في بيسان، في الأغوار
في بيت لحم
حيث كنتم أيها الأحرار..
تقدموا..

تقدموا..

قصة السلام مسرحية
والعدل مسرحية
إلى فلسطين طريق واحد
يمر من فوهة بندقية

وللوطن عند نزار تعريف غير عادي، فكل
بلدة محتلة، معتصبة، مخطوفة، لا بد أن يكون
صندوق ذخيرة تحت إسرائيل ينفجر في أية
لحظة، فيقول في تعريف الوطن:

وطني!

يا أيها الصدر المغطى بالجراح
وطني..

من أنت؟ إن لم تنفجر
تحت إسرائيل، صندوق سلاح..

ويتساءل الشاعر: كيف ضاعت الحمراء؟
وكيف ضاعت القدس؟ حقاً لأن العرب لا
يقرؤون التاريخ بعد أن لبسوا الخبز والحريز
وعاشوا الليالي الحمراء، ينصح نزار قباني
فلسطين ألا تستجد بهؤلاء العرب الذين
وضعوها في مزاد علني، فيقول:

لو قرأنا التاريخ.. ما ضاعت القدس

وضاعت من قبلها الحمراء

يا فلسطين لا تزالين عطشى

وعلى النفط نامت الصحراء

العباءات كلها من حريز

والليالي رخيصة حمراء

يا فلسطين لا تنادي عليهم

قد تساوى الأموات والأحياء

يا فلسطين لا تنادي قريشاً

فقريش ماتت بها الخيلاء

ذروة الذل أن تموت المروءات

ويمشي إلى الوراء الورااء

تلك هي القدس في وقتنا الحالي، وكم
تشبه القدس أيام الغزو الصليبي، حيث
الدويلات الصغيرة المتناحرة والتي تلجأ إلى
العدو ليناصره على جاراتها، إلى أن جاء
صلاح الدين الأيوبي، فجمع كلمة العرب
والمسلمين ووجد صفوفهم في جيش قوي
حرر القدس من الغزاة وطهر مقدساتها من
دنسهم، فمن للقدس اليوم؟ ومتى يأتي صلاح
الدين؟

أو ابن ذريل..
ولد عدنان الذهبي في دمشق سنة
١٩٢٨.

والده الدكتور محمد زكي الذهبي.
تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في معهد
الأخوة المريميين (الفرير) ثم تابع دراسته
العليا في الجامعة المصرية كلية الآداب قسم
الفلسفة سنة ١٩٤٥ وتخرج منها سنة ١٩٥٠
بامتياز.

عاد إلى دمشق ومارس التدريس في
بعض المدارس وعمل في الصحافة السورية
في مجال النقد الأدبي واهتم بتاريخ الحركة
الأدبية القصصية والروائية والمسرحية وأصدر
كتباً في النقد منها القصة في سورية والرواية
السورية وعن الأدب المسرحي الكتب التالية
مسرح علي عقله عرسان ومسرح وليد مدفعي
ومسرح القباني والشعر المسرحي في سورية.
عمل محاضراً في جامعة دمشق ونشر
مقالاته في المجلات المحلية والعربية ومارس
كتابة مختلف الأنواع الأدبية والنقدية والتحليلية
ونذر نفسه طوال حياته للتأليف والبحث العلمي
والترجمة عازفاً عن الزواج لاعتقاده بأنه
سيصرفه عن هواياته الأدبية.

لقد أغنى المكتبة العربية بطائفة كبيرة من
مؤلفاته القيمة والمميزة في اللغة والبلاغة
والدلالة والأسلوب وفي الموسيقى والفلسفة
والمسرح وتراث الدبكة والألسنة وسواها.

ويعد الأديب عدنان من النقاد المرموقين
في هذا القطر، كان يتمتع بأخلاق عالية ودمائة
خلق ولطف جم وكانت البسمة لا تفارق محياه
وكان يتكلم بصوت خفيض بتواضع واحترام
بالغين، وجميع هذه الصفات المثلى كان يتحلى
بها.

الأديب والناقد

عدنان الذهبي

١٩٢٨ - ٢٠٠٠

بقلم:

يوسف عبد الأحد

سيبقى عدنان حياً في ذاكرة أصدقائه ومعارفه وستبقى أعماله مادة خصبة وهامة للباحثين والدارسين والمهتمين.

وتقديراً لمواهبه الأدبية ومؤلفاته القيمة أقام اتحاد الكتاب العرب لقاءً ثقافياً كرّس لذكراه بتاريخ ١١ / ٦ / ٢٠٠٢ في مبنى الاتحاد تحدث فيه كل من الدكتور علي عقله عرسان والدكتور قاسم مقداد والدكتور عبد الله أبو هيف والدكتور عزت السيد أحمد ويوسف عبد الأحد.

مؤلفاته

- ١- نشيد الأنشاد - مصر ١٩٤٨.
- ٢- مبادئ علم الجمال (ترجمة) بالاشتراك مع خليل شطا - دمشق ١٩٥٠.
- ٣- فن المسرحية - دار الفكر - دمشق ١٩٦٤.
- ٤- الأدب المسرحي في سورية - ١٩٦٣.
- ٥- أدب القصة في سوريا - مطبعة الأيام ١٩٦٥.
- ٦- الفن في الزخرفة العربية - دار الفكر - دمشق ١٩٦٥.
- ٧- الموسيقى في سوريا - قدم له محمد كامل القدسي - مطبعة ألف باء ١٩٦٩.
- ٨- الوصف النفسي عند عبد السلام العجيلي - دمشق ١٩٧٠.
- ٩- الشعر المسرحي عند أحمد شوقي وعزيز أباظة وعدنان مردم بك - دار الأجيال - دمشق ١٩٧٠.
- ١٠- علم النفس والبلاغة - دمشق ١٩٧٠.

- ١١- المسرح السوري من أبي خليل القباني حتى ١٩٧٠.
- ١٢- معجم رقص السماح (دراسة) ١٩٧٠.
- ١٣- مسرح القباني - دمشق ١٩٧١.
- ١٤- مسرح وليد مدفعي - دمشق ١٩٧١.
- ١٥- في تأسيس النقيض - دار الأجيال - ١٩٧١.
- ١٦- البعد الروحي في تفسير الوجود والزوال - دمشق ١٩٧١.
- ١٧- تراث الدبكة - دمشق ١٩٧٢.
- ١٨- التفسير الجدلي للأسطورة - ١٩٧٤.
- ١٩- برهات تاريخية (دراسة ظواهرية الحضارة) ١٩٧٤.
- ٢٠- التفسير الجدلي للأسطورة (دراسة) ١٩٧٤.
- ٢١- الرواية العربية السورية - ١٩٧٣.
- ٢٢- الشخصية والصراع المسرحي ١٩٧٤.
- ٢٣- الفلسفة وبرهاتها - ١٩٧٥.
- ٢٤- مسرح علي عقله عرسان - ١٩٨٠.
- ٢٥- اللغة والأسلوب - ١٩٨٠.
- ٢٦- اللغة والدلالة - ١٩٨١.
- ٢٧- اللغة والبلاغة - اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٣.
- ٢٨- الفكر والمعنى (تفسير جدلي للمعرفة).
- ٢٩- الفكر الوجودي عبر مصطلحه.
- ٣٠- المجادلة الحضارية - يحوي على ملخصين منفصلين عن الحضارة في الصين والهند.

تاريخ الاستشراق الروسي

بقلم:
عيسى فتوح

تعود حركة الاستشراق في روسيا إلى مطلع القرن الثامن عشر، حين أصدر القيصر بطرس الأكبر مرسوماً سنة ١٧٠٠ بشأن تعليم اللغات الشرقية للروس، وفعلاً أرسل خمسة من طلاب موسكو ليتعلموا اللغات الشرقية في بلاد الشرق، وسارت على خطاه الملكة كاترين الثانية، حين أصدرت أمراً سنة ١٧٦٩ بتعليم اللغة العربية ثم التترية في مدرسة قازان لإعداد المترجمين.

وقد عني بعض المستشرقين الروس بدراسة اللغات السامية كباير (١٦٩٤ - ١٧٣٨)، الذي درس اللغات وجمع بعض المواد العربية، ففتح الباب لمن جاء بعده، ثم العالم كير (١٦٩٢ - ١٧٤٠) أحد مترجمي وزارة الخارجية الروسية، ومن أوائل المستشرقين الروس الذين بدأوا بتدريس العربية في موسكو، واهتدوا إلى حل الخط الكوفي، والمستشرق الألماني ميخائيليس (١٧١٧ - ١٧٩٠) الذي قصد موسكو، ودرس العربية فيها.

بيد أن نشاط هؤلاء المستشرقين، وأثر الذين وفدوا إلى الشرق العربي وكتبوا عنه، كالراهب بلكشين الذي طوّف في لبنان وسورية وفلسطين، وألف عنها كتاباً بعنوان "ذكريات"، والقائد البحري كولوفتسوف (١٧٤٥ - ١٧٩٣) ظل محدوداً، حتى إن صدور القرآن الكريم على نفقة كاترين الثانية، كاد يمرّ دون أن يشعر به أحد، في حين أنه أحدث ضجة كبيرة في أوروبا كلها.

وعلى الرغم من أن أكاديمية العلوم قد أنشئت في بطرسبرج سنة ١٧٢٥، وتعلم بعض الروس اللغات الشرقية في بعثات أرسلت إلى الشرق، فإن تعليم اللغات الشرقية لم يبدأ في بعض المدارس الروسية العليا إلا في القرن التاسع عشر. وفي الحادي عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٨ أنشأت أكاديمية العلوم المتحف الآسيوي، وجمعت له الكتب والنقود والمخطوطات والنقوش التي كانت في خزائن بطرس الأكبر، وهكذا نشطت الدراسات الشرقية في روسيا، واهتم علماء كثيرون بهذه الدراسات، وبرزت أسماء عدد منهم كالمستشرق "روزن" الذي كان زعيم المدرسة الروسية للدراسات العربية، و"مار" الذي أنشأ نظرية حديثة هي النظرية المادية للغة، و"بارتولد" مؤرخ الشرق المشهور، و"كراتشكوفسكي" أشهر مستشقي الروس.

وعندما انتشر الرخاء في روسيا، وتقدمت الثقافة، وتطور العلم، اتسعت الدراسات الشرقية ونشطت بأكثر مما يتحمله المتحف الآسيوي، فأنشئ معهد الدراسات الشرقية في أكاديمية العلوم الروسية، وضم جميع الأقسام التي أنشئت من قبل، وتمت إلى الدراسات الشرقية بصلة، مثل معهد الدراسات البوذية، ومعهد الدراسات التركية، وكلية المستشرقين، وألحق به جميع العلماء الباحثين في هذه الدراسات من أمثال كراتشكوفسكي، ويشرف على كل قسم من أقسام هذا المعهد عالم مختص في مادته.

ومن أهم ما يعنى به المعهد إخراج المعاجم، وقد أصدر طائفة منها، لكنها جاءت أقرب إلى الموسوعات منها إلى كتب اللغة. كما يهتم اهتماماً خاصاً بدراسة تاريخ اللغات، كالصينية، والهندية، والمغولية، واليابانية، والفارسية، والتركية، والعربية، ومن الكتب التي أخرجها أجرومية اللغة الصينية في جزأين، يعنى الجزء الأول باللغات القديمة، والثاني باللغة الحديثة.

كذلك نشر معهد الاستشراق كتاباً لكراتشكوفسكي عن الأدب الجغرافي العربي الذي كان مجهولاً أو مهملاً من قبل، وقلمما يعنى به الباحثون، ولكن أهم ما قام به هو دراسة أصول الحياة في البلاد الشرقية في القرون الوسطى، وخصائص المدنية فيها، وإقامة البدو الرحل حول الواحات، واتخاذهم عادات أهل الحضر، وقيام الإمبراطوريات الشرقية وتفككها.

لقد نشر معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم الروسية أكثر من ثمانين مؤلفاً بين بحوث ونصوص، من أهمها كتاب العالم "فلاديمير تزيف" عن الهيئة الاجتماعية بين المغول وتأليفها ونشر العالم "إيفانوف" وثائق المحفوظات لدى خانات خيفا في القرن التاسع عشر، كما نشر أبحاثاً عن تاريخ "قره كولياك". وأصدر "جورد لفسكي" مؤلفاً ضخماً عن دولة السلاجقة في آسيا الصغرى، ونقلت رحلة ابن فضلان على نهر الفولغا التي حققها الدكتور سامي الدهان إلى اللغة الروسية، كما

صدرت ترجمة روسية جديدة للجزء الثالث من تاريخ رشيد الدين الشهير باللغة الفارسية. واتسع قسم المخطوطات في معهد الاستشراق الروسي اتساعاً كبيراً، فصار من أهم مجموعات المخطوطات في أوروبا، وفيه الآن ما يزيد على أربعين ألف مخطوط، ومنها ما هو نادر، ومن أكبرها قسم المخطوطات العربية الذي يضم أكثر من اثني عشر ألف مخطوط، كتاريخ المنصوري للحموي، وهي نسخة بخط المؤلف، والجزء الخامس من تجارب الأمم لابن مسكويه، وهي نسخة كتبت في القرن الخامس عشر الميلادي، ونسخة كاملة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ونسخة من كتاب الكامل للمبرد، ويعود تاريخها إلى سنة ١١٤٢ ميلادية، وأقدم نسخة لديوان جرير من القرن العاشر الميلادي، ومخطوطة جميلة لديوان الأخطل، كتبت في القرن الثالث عشر الميلادي، ونسخة نادرة جداً لديوان الشاعر الأموي ذي الرمة، ومخطوط نادر لديوان أبي نواس، ومخطوط آخر نادر من القرن الثالث عشر لديوان ابن قزمان الشاعر الأندلسي ومجموعة أشعار للشاعر الفارس أسامة بن منقذ، ومجموعة أشعار للشاعر المصري ابن تغري بردي، وقد كتبت في عصره.

ومن الطرائف فيما يتعلق بأدب البلدان، ثلاث منظومات نظمها أحمد بن مجيد، ودليل المستكشف فاسكو دي غاما في وصف الطرق البحرية في المحيط الهندي، ووصف لرحلة بطريق أنطاكية في روسيا في القرن السابع

عشر الميلادي. وفي العلوم الرياضية هناك مخطوطة لمبادئ إقليدس، يعود تاريخها إلى سنة ١١٨٨ ميلادية، ومجموعة لرسائل ابن الهيثم، وكتاب في الفلك لنصير الدين الطوسي. ومن أهم المخطوطات عامة، نسخة للقرآن الكريم بالخط الكوفي كتبت في القرن التاسع الميلادي، ومخطوط للتوراة باللغة العربية كتبت في دمشق سنة ١٢٣٦م.

أما مكتبة المعهد فتحتوي على سبعمائة ألف مجلد مكتوبة بأكثر من ستين لغة أوروبية وشرقية، ومما يدل على اتساعها أن مكتبة المتحف الآسيوي كانت تحتوي سنة ١٨٤٤ على ٣٠٦٧ مجلداً، وفي سنة ١٩١٨ كانت تحتوي على نحو ٣٥ ألف مجلد. وتتصل هذه المكتبة بالمعاهد المختلفة في روسيا وفي الخارج وتغيرها كتبها، كما يتصل المعهد نفسه بجميع الهيئات التي تعلم اللغات الشرقية أو تدرسها في روسيا وفي الخارج.

ويقوم مجلس المعهد بدراسة الرسائل التي تقدم إليه من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق، كما أنه يساعد الطلبة الذين يقبلون على الدراسات الشرقية بالمنح المالية، ويؤدي عمله بكل جد ونشاط، كما يقوم المستشرقون بترجمة ونشر العديد من الكتب العربية قديمها وحديثها كل عام، فقد ترجموا مقدمة ابن خلدون، وتاريخ الجبرتي، والبخلاء للجاحظ، وكليلة ودمنة لابن المقفع، وطوق الحمامة لابن حزم، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، والأخبار الطوال للدينوري وسقط الزند واللزوميات لأبي العلاء المعري..

لقد خرج الاستشراق في روسيا من نطاق الجامعات والمكتبات والمتاحف، إلى مجال الأدباء والمجلات ودوائر المعارف والعلماء، فألف تولستوي - وقد درس الإسلام في مصنفات كريمسكي وأثنى على ترجمة ألف ليلة وليلة - حكم النبي محمد (نقله إلى العربية سليم قبعين) واقترح مكسيم غوركي - وكان قد درس الإسلام في مصنفات كريمسكي أيضاً - على مستشركي روسيا إنشاء فرع شرقي في دار الآداب العالمية، فأنشأوا "الرابطة الشرقية"، كذلك قام "كوزمين" بترجمة حكمة أحيقار، و"سالة" بترجمة حكايات لقمان الحكيم، ثم حي بن يقظان.

ونشر المستعربون الروس في مجلة الشرق (مجلة دار الآداب العالمية) لأمية الشنفرى ومختارات للمتنبى، وعلي بن الجهم، وابن حمديس، وأمين الريحاني، وإحدى مقامات الشيخ ناصيف اليازجي.

أما بلياييف فقد ترجم مقاطع من تاريخ الطبري، كما ترجمت كلثوم عودة فاسيليفا في كتابها «المنتخبات العصرية» مختارات لأديب اسحق، والكواكبي، وجرجي زيدان، والريحاني، وجبران، ونعيمه، ثم أضافت إليهم فيما بعد طه حسين، وتوفيق الحكيم، والمازني، وذا النون أيوب. وعندما ألفت كتاب المختارات للقراءة المنزلية، ترجمت فيه لكل من عبد الرحمن الشرقاوي، وعبد الرحمن الخميسي، ويوسف إدريس، ومواهب الكيالي، ومحمد إبراهيم دكروب، ووصفي البني..

لقد صدر للأدباء العرب ما يزيد على ١٢٤ كتاباً، طبعت منها ملايين النسخ في أكثر من ثلاثين لغة من لغات الاتحاد السوفياتي السابق أذكر منها: "قصص مصرية" لعيسى عبيد، ويوسف جوهر، ومحمد البدوي، ومحمود طاهر لاشين (١٩٥٦)، وثمانى قصص لمحمود تيمور، بالإضافة إلى عدد من القصص المختارة لكتاب سوريين ولبنانيين.

أما الكتب التي ترجمت بكاملها فمنها: كهان الهيكل للدكتور جورج حنا ١٩٥٥، والمصباح الزرق لحنا مينه ١٩٥٦، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ١٩٥٩، والصفقة لتوفيق الحكيم أيضاً ١٩٦٠، ما تراه العيون لمحمود تيمور، ودعاء الكروان لطفه حسين ١٩٦٢، بالإضافة إلى أرض النفاق ليوسف السباعي، وغصن الزيتون لعبد الحليم عبد الله، والعربة الأخيرة ليحيى حقي، وتاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري.

كما ظهرت بالعربية مؤلفات الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، والبيروني، والسكاكي، محققة تحقيقاً علمياً جيداً. كل هذا غيض من فيض مما قام به المستعربون في روسيا. لقد قدموا خدمات جليلة للأدب العربي وتاريخه، ففاقوا بذلك جميع مستعربي العالم شرقاً وغرباً، ولو رحنا نحصى أعمالهم كلها لاحتجنا إلى المجلدات الكثيرة، وحسبي أنني أشرت إلى أبرز أعلامهم والإنجازات التي حققوها على مدى قرنين ونصف القرن تقريباً.



اعتزافات امرأة شتائية

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

ما لجنوني أبداً حدود..
ولا لعقلي أبداً حدود..
ولا حماقتي على كثرتها
تحدّها حدود..
يا رجلاً يغضبه تطرُفي
من الذي يغضب من تطرُف الورود؟
هذا أنا.. من يوم أن خلقتُ
أنوثتي ساحقة..
عواطفي حارقة..
شواطئي تضربها البروق والرعود..
هذا أنا من يوم أن عشقت..
أشرعتي مفتوحة
ضفائري مفتوحة
أوردتي مفتوحة
وأنهري تهزاً بالسُدود
فلا تقف مُرتبكا..
وذاهلاً..
أما إعصاري.. فأني امرأة..
ليس لما تُريده حدود..
هذا أنا.. يا سيدي
هذا أنا..





بغير أصباغ، ولا طلاء
حُبِّي شتائي..
ولا أشعرُ أني امرأة
إذا انتهى الشتاء..
حُبِّي جنوني..
ولا أشعرُ أني امرأة
إذا لم أحطم قشرة الأشياء..
حُبِّي انتحاري..
فلو رميتني في البحر، ذات ليلة
وجدتني..
أسير فوق الماء..
حُبِّي طفولي..
فلو لمست خصري مرة
حلقت بين الأرض والسَّمَاء..
فلا تعاقبني على طفولتي
فإنني من دونها،
فراشة من خشب..
وزهرة من ورق..
ولوحة بيضا..
يا أيها الجالس..
سلطاناً على أوراقه
يا أيها السلطان..
أكتب على إسوارتي..
أكتب على دشدشتي..
أكتب على الأجفان..
أكتب على الرياح..
والأمواج..





والأمطار..
والخلجان..
أمنيّتي..
بأن أكون فتحة..
أو ضمة..
أو كسرة..
أو زهرة صغيرة
في ذلك البستان..
لو كان بالإمكان، يا صديقي
لو كان بالإمكان..
يا رجلاً حرّرتني..
من سلطة الزمان والمكان..
لو كنت تدري، كم أنا مبهورة..
وكم أنا سعيدة..
وكم أنا أشعر بالأمان
يُثيرني..
في بيتك الأليف، كل شيء..
البسط الحمراء..
والأزهار..
واللوحات..
والتبغ الذي يرفض أن يفارق الحيطان..
يُثيرني..
حتي الكراسي عندما تحسّ بالأمان..
يا أيها الغارق في مقعده الجلدي..
هل تبصرني؟
في زحمة الأوراق..
يا أيها المزروع كالوردة في الأعماق





أغارُ من يدك.. يا صديقي
حين على الأوراقِ تعزفان..
أغارُ من رائحةِ الخبر..
ومن رائحةِ الصمت..
ومن رائحةِ الأحطاب..
والنيران..
أغارُ من رسائلِ الحب..
التي تكتبها..
وقطةِ البيتِ التي تحضُّنها..
وقبضةِ الفنجان..
يا سيدي..
الجالسِ في نهايةِ الدنيا..
ألا تذكرني؟
أنا التي شكلتني
من رغوةِ البحر..
ومن حجارةِ الياقوت..
والمرجان..
أنا التي..
كنتَ تناديني، إذا أردتني:
يا قمرَ الزمان..
يا مَنْ على يديه قد تشكَّلت أنوثتي
يا أيها المسؤولُ عن هندسةِ الخصر..
وعن تموجِ الشعر..
وعن مواسمِ المَشْمَشِ،
والرمان..
يا رجلاً عوّضني بحُبِّه..
عن أجملِ الأوطان..



حُكِّمَ عليها بعد تخرجها في كلية الصحافة، بسبع سنوات. قضتها خلف أبواب ديوان إحدى الشركات، تقيد المراسلات الصادرة والواردة، وتمنح جميع تلك الأوراق أرقاماً متسلسلة بعد فض مغلفاتها، وبما يتطابق مع أرقام السجل الكبير ذي الغلاف الكرتوني القاسي. وبعد الساعة الحادية عشرة صباحاً، تنتهي أعمالها المحددة، فتتكب على مراقبة عقارب الساعة البطيئة، منتظرة انتهاء يوم عمل ممل بباقي أيام السنة.

اليوم، وبعد كل تلك السنين، وصلت إلى موقعها الصحيح: محررة، تعمل بنشاط ملحوظ، ونجاح متميز، في مجلة واسعة الانتشار. قالت لنفسها وهي تخطو مسرعة باتجاه مبنى المجلة:

لا أجد مبرراً لغيرة زملائي من نجاحي! ولا أعرف لم كل تلك الضجة التي يثيرونها حول شخصية مدير التحرير وحول علاقتي به! لنفرض أنني أحبه، هي حياتي الخاصة، ولا شأن لأحد بها. ويجب ألا يغيب عن ذهني أنه ساعدني في الانتقال إلى فضاء الصحافة. فليقولوا عنه ما يشاؤون: "انتهازي، وصولي، انبطاحي، روتيني، وبخيل"

فليزعموا أي شيء، كل ذلك هراء. قصدت مكتبه، تبته هواجسها. لاقاها ببشاشة، وطيب خاطرهما، قائلاً:



كرسي

الرجل

الليمونة



عزيزتي! مادمت أجلس على هذا الكرسي،
ستحظى مقالاتك بالعناية الفائقة.

شكراً لك، يا "معلم"، لا أشك في ذلك.
أجابته وقد أشرق وجهها الجميل بابتسامة
الوفاء والعرفان.

كعادتها كل يوم، احتست القهوة الصباحية
برفقتة، بينما كان مكيف الهواء المعلق في
الجدار يهدر موزعاً هواء بارداً في أرجاء
المكتب. تجاذبت معه أطراف الحديث. كان يبدو
أصفر شاحباً، رغم مبالغته في أناقته، وقد
ارتدى قميصاً أصفر وربطة عنق ذهبية اللون.
قام مغادراً كرسيه، وتقدم نحوها بحركة وكأنه
يتدحرج ليستقر على الأريكة الكبيرة قربها،
بدا لها قصيراً أكثر من أي وقت سابق.

جلس وشرع يتكلم عن دوره الشخصي في
نجاح المجلة، ثم سرد لها بضعة فصول من
سيرته الذاتية الغنية بالمواقف المشرفة،
باستخدام القلم في مواجهة المتسلطين،
والدفاع عن المصلحة العامة وذوي الظلّامة من
الأهالي والمواطنين. كان- على حد قوله -
سفيراً وفياً لـ "السلطة الرابعة" فقط، دون
بقية السلطات، وسيفاً مسلولاً لـ "صاحبة
الجلالة"، الصحافة، كما يحب دائماً أن
يسمّيها، دون أن ينسى التطرّق إلى بعض
ذكرياته العاطفية ومغامراته الناجحة على
هامش ذلك كله.

وهو يشيّعها في نهاية اللقاء تمنّى لها يوم
عمل ناجح، وذكر أنه لن يحال إلى التقاعد-
وكان ذلك الأمر كان يشغل باله- فهو رجل
مهني مهم، والصحافة بحاجة دائمة لخبراته
الواسعة.

في وقت ما من صباح اليوم التالي، وبينما
هي متوجهة لإنجاز تحقيق صحفي، تلقت
اتصلاً هاتفياً مختصراً من زميلة فاشلة
وحسودة:

"لقد سُرّح".

اضطربت قليلاً. تناولت هاتفها المحمول،
تريد الاتصال به والتأكد من الخبر، علّها
تواسيه، لكنها توقفت وفكرت:

- ماذا سأقول له لو كان قد سُرّح فعلاً؟

تري، هل سيتابع اليوم أيضاً، غزله الممجوج لي
بالهاتف؟

مللت تلميحاته وبذاءاته، ليته كان يحترم
سنّه.

أعادت الهاتف إلى حقيبة يدها. تخيلت
هيئته، وهو يغادر كرسيه العزيز. تراءى أمامها
أصفر اللون، بديناً قصير القامة أصلع الرأس.
قالت لنفسها:

كيف لي أن أحب رجلاً متقاعدًا، وأنا أملك
مفاتيح المستقبل من طموح وجمال وشهادة
جامعية تخصصية.

لأول مرة تساءلت مستغربة:

- ترى كيف وصل؟

ثم زمت شفيتها وتابعت التأمل:

- لا أحد يعرف كيف وصل إلى منصبه،
فهو لا يملك تأهيلاً أكاديمياً في الصحافة، ولا
في الأدب العربي، ولا حتى في الأدب الصيني،
وفوق ذلك هو أشبه ما يكون بالليمونة؟

نظرت إلى الأمام، وانكبت متابعة تحقيقها
الصّحفي باندفاع، آملة أن لا تقل مكانتها في
نفس المدير اللاحق عما كانت لدى سابقه.

حول استخدام مفهوم الدراماتورج

حوار مع المنظر والكاتب والمخرج المسرحي د. يونس لوليدي

حاورته:

عصمت كامل إسماعيل

ما يزيد أهمية مهرجان دمشق المسرحي عادةً هو وجود الندوة الفكرية التي ينتظرها المهتمون من مسرحيين ومخرجين ونقاد، وذلك لأنها تتناول وتناقش العراقيل التي تعترض مسرحنا العربي، العراقيل الراهنة المرافقة لكل مرحلة من مراحل هذا المهرجان منذ نشأته وحتى الآن هذا من جهة، ومن جهة ثانية للإطلاع على آخر التطورات في المفاهيم المسرحية وذلك عبر استضافة هذه الندوة لمفكرين عرب وأجانب والاستفادة من النقاشات التي تتم بينهم.

في الدورة الفائزة للمهرجان الدورة الرابعة عشرة / ٢٠٠٨/ جاءت الندوة تحت عنوان "مفهوم الدراماتورجيا"، وعلى هامش هذه الندوة كان لنا هذا اللقاء مع الدكتور يونس لوليدي الذي قدم دراسة بعنوان "الدراماتورج وسينوغرافيا المقدس، قراءة دراماتورية لوضع تصور سينوغرافي لرسالة الغفران لأبي العلاء المعري".

يونس لوليدي مخرج وكاتب ومنظر مسرحي، حصل على الدكتوراه السلك الثالث عام ١٩٨٦ من جامعة مرسيليا الأولى في موضوع "اللغة الدرامية"، كما حصل على درجة دكتوراه الدولة ١٩٩٤ من جامعة المولى إسماعيل بمكناس، كانت أطروحته حول "الأسطورة الإغريقية في المسرح العربي المعاصر"، يعمل أستاذاً في العديد من المؤسسات الجامعية المغربية، من أبرز كتبه: "الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية"، "المسرح والمدينة"، و"النص الأدبي بين الواقع والمتخيل"، كما نشر له العديد من الدراسات النقدية محلياً وعربياً، في جعبته أربعة عشر عملاً مسرحياً، عمل كدراماتورج في بعضها مثل: بن سلك عام ٢٠٠٣، وأساطير معاصرة عام ٢٠٠٤، وغيرها.. كما أخرج ما يقارب ثمانية عروض منها على سبيل المثال: موليير المتخيل عام ١٩٩٧، تمارين في

التسامح عام ١٩٩٩، برلمانيات عام ٢٠٠٣، وآخرها قاضي الظل عام ٢٠٠٧.

• إن كان الدراماتورج يساعد فريق العمل المسرحي على اختيار الموقف الذي يريد أن يخلقه مع المتلقي، كما ورد في دراستك التي قدمتها في الندوة، ألا يعتبر هذا تدخلاً في عمل المخرج أو بالأحرى تدخلاً في رؤية المخرج للعرض المسرحي؟

** لننتفح أولاً على أن دور الدراماتورج ليس في التدخل لا في رؤية المخرج ولا في رؤية الممثل ولا في رؤية السينوغرافي، بل هو فقط في إضاءة النص وتقديم مجموعة من التوضيحات والمعلومات سواء منها التاريخية أو الفنية أو الجمالية انطلاقاً من فرضية ألا وهي أن تكون للDRAMATOURGE ثقافة موسوعية بالمسرح ومناهجه وشعرياته الأمر الذي لا يتحقق لا للمخرج ولا للممثل ولا لباقي العاملين في مجال المسرح، إذاً هو يساعدهم على اختيار موقف هم أصلاً تبنيه أي يساعدهم على كيفية بلورته وطرحه. ففريق العمل اختار أن يكون عمله مثلاً هزلياً أو جاداً، اختار أن يجيب عن أسئلة أو أن لا يجيب، أن يكون مستفزاً أو مهادناً، هنا يأتي دور الدراماتورج فيقدم لهم مجموعة من الأدوات التي ستحقق هذا التوجه مع المتلقي وهذه الرؤية للجمهور وهذا الدور لعملهم، كما أن فريق العمل قد يغير موقفه من مسرحية إلى أخرى ومن عمل إلى آخر، هذا لا يعني أن تكون مشاكساً أو مهادناً في كل أعمالك أو هزلياً أو جاداً في كل أعمالك، ففي كل مرة تغير موقفك حسب ظروفك وقناعاتك وأسئلتك وأجوبتك، لذلك تكون في حاجة إلى من يساعدك على إيجاد الأدوات إذا الدراماتورج ليس منافساً لا للممثل ولا للمؤلف ولا للمخرج ولا للتقنيين وإنما هو مضيء للنص وهو في طريق إنجازهِ على خشبة العرض.

• ما يحدث حالياً في بلداننا العربية هو تقويض لدور الدراماتورج، ويصّر المخرج على وجود المعد بالرغم من أن أحد مهام عمل الدراماتورج هو الإعداد للعرض المسرحي؟

** كأي شيء قادم علينا في بلداننا العربية لأول مرة نرفضه، عندما جاءنا مفهوم المخرج لأول مرة رفضناه وبعد ذلك السينوغرافي أيضاً رفضناه، لكن مع الوقت قبلناهم وبدؤوا يأخذون أمكنتهم داخل المسرح العربي، الدراماتورج الآن مفهوم ملتبس إلى حد ما، وكل موقف مضاد له هو نوع من الدفاع عن النفس، فالمخرجون الآن يتصدون للDRAMATOURGE خوفاً من أن ينافسهم وهم مخطئون باعتقادهم هذا، فالمخرج مهما كانت ثقافته واسعة أو موسوعية قد يحتاج لمن يقدم له أشياء فنية أو جمالية أو تاريخية لا يعرفها، قد يقدم له الدراماتورج كل الذين تناولوا هذا الموضوع قبله، كيف تناولوه؟ وكيف أنجز عبر التاريخ؟ وما هي الأسئلة التي حملها عبر التاريخ؟ إذا الرفض العربي للمفهوم الآن أكد كما قلت سابقاً هو رفض فيه نوع من دفاع المخرجين عن أنفسهم في انتظار أن يفهموا دور الدراماتورج وأنذاك لا مناص من أنهم سيستعينون به.

• كمخرج هل سبق وأن استعنت بدراماتورجين؟ ومتى تعمل مع الآخرين كDRAMATOURGE؟

** عندما أكون بصدد إخراج نص ما وأحتاج إلى من يوثق لي مادة أو أحتاج لمن يشرح لي أشياء لا أفهمها أو أريد أن أولها فلا أرى مناصاً من الاستعانة بدراماتورج كما في مسرحية "الحفل الكبير" و"رحلة قطار" لم لا أستعين بدراماتورج، وعندما يحتاجني مخرج كDRAMATOURGE أنتقل من دور المخرج إلى دور الدراماتورج لأنني أرى أن المخرج آنذاك في حاجة إلى خبرتي مثلاً في الأسطورة الإغريقية أو إلى خبرتي في المقدس أو بالشعريات الكلاسيكية والحديثة، لذلك أقول دائماً

للمخرجين العرب اطمئنوا فوجود الدراماتورج في المسرح ليس من أجل منافستكم وإنما من أجل أن يساعدكم.

• لأي درجة يمكن الاستغناء عن الدراماتورج في حال وجود سينوغرافي جيد، أو الاستغناء عن الاثنين معاً، أي أن تكون صفة الدراماتورج والرؤية السينوغرافية ملتصقة بالمخرج، التي يؤكد على وجودها في الملصقات كما يحدث في مسرحنا حالياً؟

** هناك مسألة لا بد أن نعيها جميعنا ألا وهي أن المسرح فنّ جماعي وليس فناً فردياً، فلا يمكن أبداً لشخص واحد أن يكون هو المؤلف والمخرج السينوغرافي والدراماتورج في الآن نفسه لأن رؤيته ستستنزف وسيحتويها عمل واحد، ولن تكون لا غنية ولا متنوعة، لكن عندما يأتيك المؤلف بنص وتأتي أنت كمخرج وتضيفي عليه من رؤيتك وإبداعك يصبح أكثر غنى، ثم يأتي الدراماتورج ويضيف إليه من تفسيراته وتأويلاته وشروحه يصبح أيضاً أكثر غناً وكذلك عندما يضيف السينوغرافي من تصوراتهِ والممثل عندما يضيف إليه من جسده وروحه وفكره وأدائه يصبح أيضاً أكثر ثراءً، أي أن هناك شيء اسمه التخصص، فنحن في زمن التخصصات وفي زمن الإبداع المتعدد والرؤى المتعددة وليس الإبداع الواحد والمتوحد، وأحياناً نجدتها تسميات من أجل التقليعات والصرخات لأنه فقط في أوروبا هناك الدراماتورج والسينوغرافي أو البلد العربي الآخر فنضع نحن أيضاً في برشورنا سينوغرافي ودراماتورج لنسائر الصرعة أو لنقول أننا مسرح متطور مع العلم أنه في نهاية الأمر يقوم المخرج بكل شيء وعلى ذكر قضية الملصقات في مهرجاننا هذا هناك ملصق فيه المخرج هو السينوغرافي وعندما ننظر داخله نجد أن هناك مصمماً للديكور وآخر للإضاءة و مصمماً للأزياء

أي أن هؤلاء من صنع السينوغرافيا إذا لم ألصق المخرج لنفسه صفة السينوغرافي وله فريق عمل قام بالتصميم، إذا هو أعجبته التسمية فنسبها لنفسه ونسب للآخرين تسمية المصممين، معنى ذلك أنه أحياناً هناك فعلاً سينوغرافي وهناك دراماتورج أيضاً وأحياناً هي مجرد تقليعة أو مجرد مباهاة ومسايرة للعصر مع الاحتفاظ بديكتاتورية المخرج؛ فالعمل المسرحي ليس عملاً فردياً ولا يتلقاه فرد وإنما هو مجهود مجموعة متضافرة من المبدعين الذين يكتب كل واحد منهم على كتابة الأول فيضيف إضافة إبداعية إلى إبداع الأول لنحصل في نهاية الأمر على عمل متكامل شاركت فيه مجموعة من الناس، لكن أن نستغني عنهم من أجل الشخص الواحد فأقارنه تماماً بالمغني الذي يكتب لنفسه ويلحن لنفسه ويغني بنفسه، قد يفعل هذا الأمر في أغنية أو أغنيتين لكنه لن يستطيع أبداً أن يستمر لأننا في حاجة إلى من يزكي إبداعنا ويعمقه

• هل ينتفي وجود الفضاء الدرامي عند نقل المسرحية كنص مقروء متخيل إلى عرض مسرحي ذي رؤية محددة سلفاً من قبل المخرج والدراماتورج؟

** لا، لا ينتفي لسبب بسيط هو أن الفضاء الدرامي يشترك في صنعه إما القارئ عندما يقرأ النص أو المشاهد عندما يشاهد العرض، يعني الفضاء الدرامي ليس رهيناً بالنص الدرامي فقط أو بين دفتي كتاب، حتى عندما يعرض ويكون المتلقي آنذاك ليس هو القارئ وإنما المشاهد، هنا يصنع المشاهد أيضاً فضاءه الدرامي انطلاقاً من كلمات النص وانطلاقاً من حركات الممثلين ومن إيقاعات العرض ومن رؤى المخرج والإضاءة وكذلك الإكسسوارات والموسيقا، فيبدأ كل مشاهد بصنع فضاءه الدرامي الخاص به والذي ما هو في نهاية الأمر إلا فهم وتأويل وتفسير لهذا الذي نشاهده

وإسقاط لحالتنا الفكرية والنفسية والاجتماعية عليه، معنى ذلك أن الفضاء الدرامي موجود سواء في النص أو في العرض.

• كنت قد اقترحت في دراستك "قراءة دراماتورية لوضع تصور سينوغرافي" نموذجاً رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، أي اعتمدت الرجوع إلى التراث، هناك من يرى أن أحد أسباب تراجع المسرح العربي هو العودة إلى التراث، ما رأيك؟

**عندما أخذت رسالة الغفران كنموذج لم يكن قصدي العودة إلى التراث فقط، لا أبداً وإنما قصدي كان أن أثبت للمؤلفين وللمخرجين وللعاملين في المسرح أن الدراماتورج قادر أن يقترح عليهم نصوصاً ليست نصوصاً مسرحية هذا أولاً، سواء من التراث الفكري أو الديني أو الثقافي أو من المعاصر أو من أي نص غير النص المسرحي أصلاً والمعد سلفاً للمسرح فقط، وثانياً أن أثبت لهم أنه عندما تقولون بوجود أزمة نصوص وأن العالم العربي يعاني من هذه الأزمة فهذا مخرج، فانتبهوا إلى نصوص أخرى ليست مسرحية بالأساس قد تكون روائية أو أدبية أو فلسفية أو ... يستطيع الدراماتورج أن يحولها إلى نص مسرحي وبذلك يُغني مساحة المسرح العربي، ثم أنني أكدت في البداية على أن نص "رسالة الغفران لأبي العلاء المعري" ليس نصاً درامياً لكن عمل الدراماتورج هو الذي سيحوّله إلى نص درامي. وبالنسبة للعودة إلى التراث يمكن لها أن تخدم مسرحنا إذا أحسنا هذه العودة وإذا لم يكن المقصود منها الانغلاق على الذات أو أن ننقطع عن العالم أو أن نخاصم الآخر تحت اسم التراث لكن يمكننا أن نوظفه من أجل تحليله وجعله معاصراً أو من أجل إسقاط القضايا العصرية عليه أو استدعاء شخصيات تراثية يمكن لها أن تؤثر

في حياتنا المعاصرة، ولكن لا ينبغي أن يقوم مسرحنا العربي كله على التراث فهو نوع معين، لأنه ليس هناك نموذج أوحده أو أمثل للمسرح، بل هناك عشرات بل مئات إن لم نقل آلاف النماذج ولكل نموذج جمهوره المفضل ونقاده المفضلون وقضاياه المفضلة، إذا العودة إلى التراث لن تشكل إلا تجربة من عدد كبير من التجارب الأخرى التي قد يكون فيها العبث أو التراجيديا أو الكوميديا أو السخرية السوداء أو .. وهذه العودة ليست حكراً على المسرح العربي برمته ولا على كل تجاربه، وإنما هي تجربة ضمن مجموعة من التجارب الأخرى.

• هل هذا يعني أن المسرح العربي يعاني فعلاً مما يقال "بأزمة النص"؟

**لا أؤمن بشيء اسمه "أزمة النص" لأن المسرح دائماً يستطيع أن يستخرج لنفسه نصاً من حيث لا ينتظر أحد، فإن كانت النصوص مكتوبة وجاهزة فهذا جيد، وإن لم تكن مكتوبة فلدى المسرحيين القدرة على أن يستخرجوها من قصائد الشعر أو من الروايات أو من المقالات النقدية والفكرية والسياسية أو أن يستخرجوها من الحياة الواقعية أو من أي نص ينتمي إلى أي جنس أدبي أو فني، إذا فهي أزمة مصطنعة أن نقول إن هناك أزمة نصوص ونمر بها حينما نعجز عن الإبداع، ويمكن لنا أن نرى أن هناك فترات يقوى فيها المؤلفون ويصبحون هم أسياد الموقف، وفي هذه الحالة يتراجع قليلاً المخرجون ونبدأ الحديث عن غنى وثرء النصوص. وهناك فترات يضعف فيها أو يتراجع فيها دور المؤلفين ويقوى المخرجون ونبدأ الحديث عن غياب النصوص وأن الساحة الآن ليس فيها إلا مخرجون وأن الرؤية الإخراجية لا تستوحيها النصوص المكتوبة الموجودة، هي فترات تناوب بين المؤلفين والمخرجين.



تحرَّكُ الشوقَ والآهاتَ عن كُتبٍ
وتزرع الوجد في صدري وفي عضدي
فهاث يا شوقُ واسقِ وجنتي وفمي
حتى تخلصني الأشواق في خلد
سلافةً تبعث الإيمانَ من عتبٍ
وتحفظ الوجد لم يمسه من أحد
عذراء طاهرة ما مسها أحد
من غابر الدهر تمشي مشية الأسد
قد عتقتها يد الباري وما دنست
حتى أتتك طهوراً زبدة الزبد
عاشت بأدنانها طهوراً معتقة
تلونت مثل لون الشمس في الرأد
تنام ملء ضميري وهي راقدة
قد لفها الصبح في ثوب من الرغد
وطوقتها يد الأسحار في خجل
وردية الوجه تبدو خير معتقد
تشععت في كؤوس العشق وانبلجت
عنها الستار وما تخفيه من عقد
عذراء.. جاءت بعين الظهر مسكنها
وفي الحوانيت تغفو غفوة الصيد
نجيبة لم ير العشاق باطنها
فهي الوحيدة للعلياء والصمد



مشكلة الذكاء

بين

الوراثة والبيئة

بقلم:

خديجة بدور

إن كثيراً من مظاهر تدهور الذكاء هي في حقيقتها تعبير عن حرمان من الأمان والحب، يحتاج الطفل إلى قدر أكبر من الأمان والحب بعد العام الأول فيزداد اعتماده على أهله ويلج في طلب وجودهم معه دائماً. ويزداد هذا الاحتياج في أوقات المرض أو التعب فالطفل بحاجة دائماً إلى تأكيد هذا الحب من أهله.

إنه يريد أن يشعر دوماً بأنه مرغوب وأن له كياناً مميزاً ومكاناً محدداً في المنزل كأبي شخص ويحتاج للحب الدافق قبل أي شيء حين يكون متوتراً دامعاً أو يعاني مأزقاً لا يملك أن يحسن فيه التصرف.

ويستطيع الأطفال تفسير وتقدير معالم الحب من ملامح الوجه ونبرة الصوت ورقة التعامل والمثابرة في فهمهم وكذلك في أسلوب الأهل في محادثتهم، فكلما أمعن الأهل في اللجوء إلى أساليب القهر والضغط والإرهاب وبرود الملامح بغية الحصول على طاعة الطفل أدى ذلك إلى سيطرة القلق والتوتر وسيادة السلبية والأفكار والتعاسة وعدم الأمان والإحساس بالخطر على سلوك الطفل ونفسيته.

وكلما حرصنا على تدعيم صورة الذات بداخل الطفل وإعطائه مزيداً من الشجاعة والثقة والعطف والتسامي إلى مصاف سلوكية أعلى ترسي لديه القدرة على الاختيار الحر والاستقلال بدلاً من إحباطه والهبوط بمعنوياته، ازدادت بالتبعية استجابته لنا، تلك الاستجابة المحببة المفعمّة بالثقة والشعور النبيل بالامتنان والاقتحام الجسور لعالم الغد.

وهناك من يعتقدون أن حب الطفل هو أن يأخذ أي شيء يريده أو شراء أغلى الحاجيات التي قد تلزمه أو لا تلزمه وعلى هؤلاء أن يعلموا أن سعادة الطفل قد لا تتم بإعطائه ملء الأرض ذهباً ولكن بإشعاره بالحب الصادق.

ولكن هناك دراسات أكثر وضوحاً وأكثر دلالة في البرهنة على تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية على نمو ذكاء الأطفال فلقد وجد أن ذكاء أبناء أرباب المهن الراقية كالمهندسين والمدرسين و المحامين أعلى من ذكاء أبناء العمال غير المهرة، وعلى سبيل المثال كان المتوسط الحسابي لنسبة ذكاء مجموعة من أطفال الطبقات المهنية الفنية (١١٧,٥) بينما كان نظيره لدى أبناء عمال اليومية هو (٩٧,٦).

يتبع قول الدكتور العيسوي

ولكننا هنا أيضاً أمام تداخل العوامل البيئية مع الوراثة ، ذلك أننا نستطيع أن نقول أن الآباء الذين يشغلون الوظائف الفنية التخصصية الراقية يوفرون بيئة تعليمية مثيرة، ومشجعة لأبنائهم، كأن يتوفر للطفل الغذاء الجيد، والكتاب والمجلة والمذياع والتلفزيون والأحاديث الراقية. ونستطيع أن نقول في نفس الوقت أن الآباء الذين يشغلون مثل هذه الوظائف الراقية ما كان لهم أن يشغلوها لولا تمتعهم أصلاً بالذكاء المرتفع، ومن ثم انتقل إلى أبنائهم بحكم الوراثة. وتمدنا الدراسات التي أجريت على التوائم العينية أو الصنوية وهي التي تتكون من انشطار بويضة واحدة مخصبة في الرحم، والتي يمتاز توائمها باتحاد العامل الوراثي، تمدنا بكثير من المعطيات التي تفيد في معرض الحديث عن تأثير العوامل البيئية والوراثية.

ولما كانت الوراثة واحدة في هذه الحالات فإتينا إذا نقلنا أحد التوائم ليعيش في بيئة مغايرة للبيئة التي يعيش فيه شقيقه، وإذا لاحظنا بعد مرور بعض الوقت اختلافاً في نسبة ذكائهما لكان مردوده الوحيد هو التأثير البيئي، أما إذا لم نلاحظ اختلافاً لكان مؤدى ذلك أن البيئة لا تؤثر في نمو الذكاء وإنه يحدد بفعل العوامل الوراثية الصرفة.

ولقد وجد معامل ارتباط قدره (٠,٨٨) بين نسبة ذكاء التوائم ولكن هذا المعامل انخفض إلى نسبة (٠,٧٧) عندما كانت الحالات معزولة عن بعضها البعض. ومعنى ذلك أنه كلما زاد تشابه الوراثة والبيئة زاد معامل الارتباط أي زاد تشابه الذكاء، والفرق الملاحظ بين معاملي الارتباط السابقين إنما يرجع إلى الظروف البيئية، وتعطي الدراسات التي أجريت على أطفال التبني ومقارنة مقدار التشابه بين ذكائهم وذكاء آبائهم الطبيعيين ثم ذكاء آبائهم بالتبني توضيح أن العامل الوراثي قوي في تحديد الذكاء، ولكن أطفال التبني الذين يتربون في أسرة واحدة تكون النتيجة تشابه ذكائهم. ومؤدى هذه الدراسات أن هناك تأثيراً للعوامل البيئية على نمو الذكاء.

يتبع قول الدكتور العيسوي:

وهنا نتساءل ما هي هذه العوامل بغية العمل على توفير المزيد منها لأبناء أمتنا العربية؟ لقد وجد أن الطفل الذي يذهب إلى إحدى دور الحضانة يمتلك ذكاء أعلى من زميله الذي لا يذهب إليها، على اعتبار أن دار الحضانة تمثل بيئة أكثر غنى من الناحية التعليمية عن البيئة المنزلية الصرفة للطفل. ولكن هذه النتيجة ليست على إطلاقها فقد ينحدر هؤلاء الأطفال الذين يذهبون إلى دور الحضانة من آباء أكثر ذكاءً أصلاً، وأكثر تمتعاً بالمراكز الاجتماعية والاقتصادية المرتفعة الذي يتحدد أصلاً بفعل عوامل وراثية.

إننا نحتاج إلى معرفة كم ذكاء هؤلاء الأطفال أنفسهم قبل الالتحاق بالحضانة ثم نقيسه بعد الالتحاق بالحضانة، فإذا زاد كانت الزيادة نتيجة لتأثير دار الحضانة.

قد لا يهتم الآباء الأقل ذكاءً بإيفاد أبنائهم إلى دور الحضانة لقد دلت إحدى الدراسات التي تتبعت الأطفال قبل وبعد الالتحاق بدور الحضانة

ووجدت أن هناك زيادة سنوية في متوسط نسبة الذكاء قدرها (٦,٦)، و لكن تفسير هذه الزيادة قد يرجع إلى تأثير الحضانة في نمو الذكاء فعلاً وقد يرجع فقط إلى تدريب الطفل على إتقان الإجابة على الأسئلة وفهمها وفهم التعليمات أي التدريب على مواقف الاختبارات وهناك دراسات أخرى أوضحت أن البيئة المثبطة عقلياً للطفل تؤدي إلى انخفاض نسبة ذكائه.

يتبع قول الدكتور العيسوي:

فحرمان الطفل من الاتصال الطبيعي بالأم الطبيعية أو الأم البديلة يخفض معدلات الذكاء، ومن الآثار الإيجابية على نمو ذكاء الطفل مقدار الساعات التي يقضيها معه الأب يومياً وكذلك فرص اللعب البنائي أمام الطفل وكذلك وفرة عدد زملاء اللعب في المنزل و عدد الساعات التي يقضيها الأب في القراءة مع ابنه.

أما الوراثة فإن تغييرها أمر صعب نسبياً وإن كان هناك الآن علم تحسين الوراثة ترى كم نحن بحاجة إلى رعاية أطفال أمتنا العربية وإحاطة ذكائهم بالرعاية والعناية وحسن التوجيه وتوفير الأغذية والتحصينات الطبية والكتب والمجلات والرحلات والمدارس وغير ذلك من الأمور التي تتحدى ذكاءهم وتوسع آفاقهم.

وهنا أقول بعدما جاء في كتابات الدكتور عبد الرحمن العيسوي وأبحاث العلماء التي ليست ثابتة أو صادقة لكن لها وجهة نظر علمية وخاصة بالنسبة للوراثة إن التربية هي المفتاح الذي نسعى لتطوير وتحسين الذكاء به.

ونحن نعلم بأن الدماغ والجسم على حالهما على الدوام لكن الإنسان استمر في تطوره ولقد كانت البداية لكل التغيرات البيولوجية إلا أنه مع مرور الوقت كانت النسبة لهذه التغيرات تتضاءل باستمرار وبينما حافظت التطورات البيولوجية على سرعة ثابتة بالتقريب فإن سرعة تطور

الإنسان تزايدت على الدوام فالتطور اليوم هو بفعل الإنسان لا بفعل الطبيعة، ويكمن التطور الحالي للإنسان فيما يتعلم.

إن عقل الوليد منذ أربعين ألف عام لا يختلف عن عقل الوليد اليوم، ويقع اختلافهما فيما يتعلمان، كما كان عقل إنسان الكهوف القديم مهيناً لتحقيق إنجازات تقدم القرن العشرين. وكان بمقدوره إنجاز ذلك لو تهيأ له جيل أسبق ليعلمه، ويبدو من المعقول افتراض أن الطفل الذي يولد في مجتمع متقدم إنما يحمل إرثاً بيولوجياً هو نوع من الاستعداد الثقافي، وهو الثمرة التي تطورت خلال القرون السالفة فالطفل الذي يولد في القرن العشرين هو طفل هذا القرن ومع ذلك فإذا ما نقلنا طفلاً حديث الولادة من لندن إلى قبيلة بدائية في أي مكان لينشأ بين أحضانها فسينمو هناك بدائياً كما القبيلة، وإذا ما أخذنا طفلاً حديث الولادة من الأدغال كان صحيحاً جسمياً وطبيعياً ودمجناه في مناخ الثقافة الغربية والعربية فإنه سينمو قادراً على التصرف كأي فرد آخر في ذلك المجتمع فليس هناك من يولد متحضراً أو بدائياً فالاختلاف تربوي والحياة هي الهبة الوحيدة وكل ما عداها مكتسب.

إنني أجزم بكل يقين بأن الناس متساوون جوهرياً ففي القوانين والدساتير الأساسية وإعلانات حقوق الإنسان نجد تأييداً للتساوي بين الناس غير أننا نفترق في الوقت نفسه عن مفهوم أساسي حول أمر أساسي يتعلق بتطور ذكاء الإنسان وذلك في الاعتقاد بأننا مختلفون بصفة جذرية منذ الولادة، فالاختلاف بين البدائي والمتحضر ليس بيولوجياً إنه تربوي ولم تكن التحولات العظمى في التاريخ وليدة لتحولات وراثية بل إنها ذات نشأة تربوية، فإذا صح أن التطور كان بيولوجياً في البدء فإنه أصبح ثقافياً في جوهره بل ويغدو هذا بيولوجياً بفعل الثقافة

فليس الإنسان إلا عقله وليس العقل إلا القدرات الفكرية لهذا العقل فإذا حجرتنا على هذه القدرات حجرتنا على الإنسان وأبقيناه عهود التخلف، هذا ما ادّعاه المستبدون فكبحوا العقل فجردوه من قدراته ليبقى الإنسان مستأنساً لا يزيد عن الحيوان المألوف إلا بالنطق.

لقد دعا لويس ألبيرتو ماتشادو لبناء برنامج تعليم الذكاء في فنزويلا وقد كان هذا شاملاً إذ غطى مستشفيات الولادة والجمهور والمدارس والجامعات والقوى المسلحة وأفراد الخدمة المدنية ويهتم المشروع بالطفل وهو جنين في رحم أمه إذ يدرّبها كيف تعتني بجنينها وطفلها فالأعوام الستة الأولى من عمر الطفل ذات قيمة كبرى في حياته المستقبلية. أقول نعم إن كل الأطفال العاديين موهوبون فالأطفال الموهوبون مجرد أطفال عاديين لا قوا العناية الكافية فالمهمة الأساسية للفرد هي التربية.

فالحق بأن تكون ذكياً حق موروث لكل إنسان كما قال ألبيرتو ماتشادو أول وزير للذكاء في فنزويلا: الحق بأن تكون ذكياً حق موروث لكل إنسان بسبب كونه إنساناً و يتساوى الكل بهذا الحق وهذا لا يقره أي فرد ولا يهبه أي فرد إنه يقف شامخاً كامتياز جوهري لا يمكن التصرف به ولا يقبل التخصيص أو التنازل عنه إنه حق طبيعي يتوجب علينا دعمه فليس كل اختراع أو اكتشاف إلا نتيجة لدراسة تأملية أو مجموعة من الأفراد الذين لهم القدرة على الإبداع وليست هناك استثناءات ولا مفر من الحقيقة أو السر الحقيقي فإنه يكمن في التربية، فالذين أبدعوا وتعلموا مسبقاً كيف يفكرون وهنا مكمن الإبداع، والتربية مسؤولة عن التخلف وخاصة الثقافي منه وذلك لأن التخلف يتجذر في أعماق العقل فالمشكلة فكرية تقع في تخلف الذكاء. والتخلف يساوي دونية الذكاء وهو

شهادة على الإخفاق، إنه إخفاق النظام التربوي والتقدم هو التربية والذكاء هو الثقافة.

فإذا لم يكن فطرياً فهو إمكانية تطورها الحياة والتربية هي الحاجة الأولى للإنسان ومن ثم كان التعلم أساسياً للحياة الاجتماعية.

فالإنسان يولد جاهلاً لكل شيء ولكنه قادر على تعلم كل شيء فهو خاضع لما يتعلمه.

من العلماء من قالوا: إن الذكاء لا يمكن فصله من البيئة التي يعمل فيها فبتغيير البيئة يتغير الذكاء وباتساعها يتسع وكل يؤثر في الآخر ومحاولة قياس ذكاء رجل بلغ الأربعين بنفس المقاييس التي نستعملها ليافع في سن ست عشرة إن هو إلا تجاهل للجزء الجوهري من المعضلة وهو طبيعة البيئة ومداهها ويقوي هذا الاعتراض ما هو معروف من أن ازدياد التجارب يزيد في قوة الفكر وإن المعرفة نفسها كما يقول (هربارت) تصبح مقدرة وإن تقدم السن يستلزم اتساعاً فيما يعنى به العقل من مصالح وشؤون وإن التعود يجلب معه سهولة في العمل ومرانا عليه فكلما تقدمنا في السن شعرنا أننا أخبر بالدنيا وأقدر على تصريفها في زمن وبمجهود أقل من زمن الصبا ومجهوده.

إذا الإنسان هو الثقافة التي حاز عليها في البداية و ثقافته الخاصة فيما بعد. فهو الذي يمكنه أن يصنع أو يعاود صنع مصيره.

قال تعالى: "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون". صدق الله العظيم. وأخيراً:

إن التفكير هم تعلم الذكاء والتربية طريق الأمة لرفع ذكاء أبنائها وكم نحن بحاجة لرعاية أطفالنا وإحاطتهم بالعناية والرعاية وحسن التوجيه وتوفير الأغذية والتحصينات الطبية والكتب والمجلات وغير ذلك... الخ. من الأمور التي تطور ذكاءهم وتوسع آفاقهم.



ليس ذنب قريحتي



شعر: جورج شدياق - فترويل

رداً على قصيدة الشاعر جاك صبري شماس (الطائر المهاجر)

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَمَا الْخِيَالُ يُبَابُ
وَالْوَحْيُ عِنْدَكَ قَدْ قَرَأَهُ سَحَابُ
أَعْدِ الْبَشَاشَةَ كَالْقَصَائِدِ يَا أَخِي
أُولَى بِشَعْرِكَ بِسَمَةِ وَشَبَابُ
هَذَا الْقَوَافِي مِثْلَ حَبَاتِ النَّدَى
أَبْدَأُ تَحْنُ إِلَى النَّدَى الْأَعْشَابُ
يَا شَاعِرَ الْخَابُورِ قَدْ أَوْلَيْتَنِي
شَرْفًا، بِهِ رَغَمَ الْبَعَادِ أَثَابُ
لَمْ أَدْرِ كَيْفَ الشَّعْرُ يُطْعَمُ شَاعِرًا
تَعْبًا.. فَشَعْرُكَ كُلُّهُ أَطْيَابُ
أَسْكَرْتَنِي بِعَصِيرِ كَرْمٍ خَيْرٍ
فَحَلَلْتَ مُعْتَقَةً.. وَلَذَّ شَرَابُ
يَا جَاكَ عِذْرًا فَالْحَبِيبَةُ "ضَادَانَا"
غَابَتْ فَعَزَّ عَلَى الْمَحَبِّ غِيَابُ
عَامٌ يَمُرُّ عَلَى قَصِيدَتِكَ الَّتِي
أَذْكِي قَوَافِيهَا شَذَى وَصَلَابُ
أَخْجَلْتَ طَائِرَكَ الْمَهَاجِرَ فَاتَّئِدُ
سَكْنَاكَ عِنْدِي هَذِهِ الْأَهْدَابُ
ذَنْبُ الْبَرِيدِ وَلَيْسَ ذَنْبُ قَرِيحَتِي
فَدَنَانُ شَعْرِي مَلُوهَا أَعْنَابُ

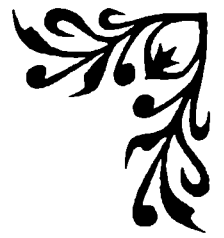




يا صاحِ خذْها من أخيكَ تحيةً
ريّا، لها عن أصغريّ منابُ
حَتّام نحيّا للكآبةِ والأسى
أخناجرُ في صدرنا وحرابُ
بك مثل ما بي.. ألفُ جرحٍ راعفٍ
مُذْ جُلّ خطبُ مُحَدّقٍ ومصابُ
تبكي كلانا أمةً عبّثتْ بها
بسّس الهوانِ ثعالِبُ وذئابُ
عائتْ بحرمتها خطوبُ جمّةُ
أُتري غداً عن أفقها تنجابُ
عصف البغاة بأمتي وعروبتِي
أوما لهم وهمُ البغاة عقابُ
مأسائها أدمتْ حنايا أضلعي
كلُّ له من سَحَقِها آرابُ
لولا الشّام لقلت زالتْ أمتي
فهناكَ أُسْدُ في العرينِ غضابُ
مازلت أحملُ في الفؤادِ همومها
إنّي لتربطُني بها أنسابُ
غلبني لها رغم التّنائي هيكُلُ
وأضالعي رغم المدى محرابُ

* * *





مازلت أذكر يوم عدتُ إلى الحمى
ومتاعُ عمري ملؤها أتعابُ
قد أبستُ والأشواق تسبقني
فأتعبنى إلى هذي الربوعِ إيابُ
هددتُ قلبي ثم قلتُ له استرحْ
أغلى من الذهبِ الكثيرِ ثرابُ
الأمنياتُ.. وأين منها بارقُ
خلف الرجاءِ، وأين أين شهابُ
كم كنتُ مسروراً بقربِ أحبتي
لكنهم شهِروا الرحالَ وغابوا
لم يدْرِ بي صَحبُ الطفولةِ والصبَا
فسألتُ أين الصَّحْبُ والأحبابُ
أبوابُ قلبي الصَّبَّ مشرعةٌ لهمُ
أزروا بها فتقطَّعتْ أسبابُ
مازلتُ أسألُ والشجون توشني
يا ربِّ فيمَ تضاعلُ الأصحابُ
شهرانِ مرّاً في الربوعِ وأدعني
من مقلتي الحرى لها تسكابُ
لم تحتفِ الشهباءُ أمسِ بشاعرِ
قد آبَ والشوقُ الملحُ مُذابُ
من ذا أعاتبُ..؟! والعتابُ محللُ
يا ربِّ هل يروي الغليل عتابُ
ألومها والحبُّ مليّ جوانحي
حبي المصطفى ليس فيه كذابُ





لولا البراعة في يدي أسلو بها
لَفَرَّتْ فَوَادِي فِي الْحَشَا أُنْيَابُ
أَغْفُو وَأَصْحُو وَهِيَ طَوْعُ قَرِيحَتِي
فَالْخَالِدَانِ قَصِيدَةُ وَكِتَابُ
لَوْ لَمْ تَرْحَبْ بِي سَوِيدَاءُ الْعَلَى
لَبَكَّتْ مَعِيَ مِنْ حَزْنِهَا الْآدَابُ
أَلْقَيْتُ فِي الْجِبَلِ الْأَشْمَ مَتَاعِي
فَهَنَّاكَ لِي أَهْلٌ وَلِي أَحْبَابُ
أَحْيَا ذَبُولَ قَصَائِدِي تَكْرِيمُهُمْ
وَأَعَادَ لِي بَعْضَ الْمَنَى تَرْحَابُ
"يَا جَاكَ" بَعْدَ غَدٍ أَعُودُ إِلَى الْحَمَى
فَالْهَجْرُ وَهُمْ عَابِرٌ وَسَرَابُ
أَرْسَلْتُ قَلْبِي إِثْرَ أَحْلَامِ الصَّبَا
مَا كُلُّ أَحْلَامِ الشَّبَابِ عَذَابُ
جَنَّبِي جَرِيحُ لَسْتُ أُدْرِي مَا بِهِ
هَلْ ذَاكَ ظَفَرٌ ظِيهِهِ أَمْ نَابُ
مَالِي غَنَى مَا غَبْتُ عَنْ ذَاكَ الثَّرَى
فِي الْبَعْدِ عَنْهُ مُرَارَةٌ وَعَذَابُ
يَا رَبَّ هَبْنِي فِي رِبْوَعي هَجْعَةً
فَلَقَدْ أَذَابَتْ مَهْجَتِي الْأَوْصَابُ
وَأَنْعَمَ عَلَيَّ وَقَدْ تَعَبْتُ بِعُودَةٍ
أَسْمَى الْمَنَى قَبْلَ الْمَغِيبِ مَابُ



الشاعر زهير ميرزا (١٩٢٢ - ١٩٥٦)

المبدع الذي رحل باكراً

بقلم:

غسان يوسف مزراحم

كانت رحلة عمره قصيرة حقاً ولكن إبداعه الشعري كان كبيراً وضخماً ومؤثراً، وبالرغم من غيابه المفاجئ والمأساوي الذي مضى عليه أكثر من نصف قرن فلا زالت أشعاره وقصائده متناثرة في الزوايا الأدبية لصحف الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، وكذلك لازالت متفرقة في المجلات الأدبية السورية واللبنانية والمصرية لذلك الزمن البعيد فعسى أن تكون هذه العجالة تذكراً وتنبيهاً للعمل بجد نحو إصدار أعمال هذا الفقيه المبدع في كتاب واحد ونحو جمع قصائده في ديوان لأن من يقرأ لهذا الشاعر سيضعه دون شك مع الصف الأول من الشعراء المجيدين..
فها هي سنواته القليلة تنتج هذا الكم الكبير من الأشعار الوطنية والوجدانية والعاطفية.

ولد الشاعر في العام ١٩٢٢م، وتابع تعليمه في مدارس دمشق، ثم انتسب إلى الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) وتخرج منها حائزاً على إجازة في الآداب عام ١٩٤٨م، حيث عمل فترة في سلك التعليم وبعدها سافر إلى المملكة العربية السعودية ليعمل في السلك نفسه بمدينة الطائف، وبعد عودته إلى دمشق عمل مديراً لمكتب الخطوط الجوية السعودية، وشاء القدر أن تسقط به الطائرة وهو عائد من حلب بعد تأدية واجب العزاء لصديق له في ٢٤ شباط ١٩٥٦م، وهكذا انتهى تحليق هذا الطائر الغريد في يوم حزين من أيام ذلك الشهر وذاك العام.

١- كافر (وحي شيطان مريد) ومحاورات أخرى، وهي من منشورات دار اليقظة العربية بدمشق، مطلع تشرين الثاني ١٩٤٨ (٨٦ صفحة من القطع الكبير).

٢- الفضيلة العربية، وهي من منشورات دار اليقظة العربية بدمشق للعام ١٩٥٠.

٣- إيليا أبو ماضي (شاعر المهجر الأكبر) دراسة وشعر، وقدم للكتاب الدكتور سامي الدهان، وهو من منشورات دار اليقظة العربية بدمشق للعام ١٩٦٣ (٨٧٠ صفحة من القطع الكبير).

وعندما أقيم مهرجان أدبي كبير في دمشق بمناسبة مرور ألف عام على ولادة أبي العلاء المعري (٣٦٣هـ - ١٣٦٣هـ / ١٩٤٣م) خصه الشاعر الفقيه بقصيدة رائعة أسماها (الميلاد الخالد) وعرف المعري بأنه وليد مخمصة فكرية جسدية روحية، وهي تقع في ستة وستين بيتاً نقتطف من ختامها قوله:

وكأنني بك المسيح وقد حمل بؤس الورى
ليُصلح شأننا

أو كأنني أراك خالصة الفكر وقد جئت غير أهلك
تعنى

قد أبیت الغمام إلا على الناس جميعاً وبالنقيض
رغبنا

واطرحت الجنان يوم تلقاها وحيداً وما لهذا
دعونا

ألف عام مضى وتمضي ألوف وسنبقى كما
عهدت وأدنى!

تلك منا طبعة الخلق فانظر كيف يستطيع أن
يرى من عمينا؟!!

وفي مدينة الطائف بالعربية السعودية،
وعندما ثقلت عليه الغربة والبعد عن الأهل
والوطن شدا بقصيدته (غريب) في العام
١٩٥٢ وهي من خمسة وعشرين بيتاً وفي
مطلعها يقول:

أيها الغائب عني
لمن اسستودعت جفني؟
أنت قد خلفتني وحـ
دي لسهدى والتمني
ولقد أولعت بالنجم
م فغاب النجم عني
وجعلت الليل سـما
ري ونـدماني وفني
فإذا الليل ثقيـل
وإذا السامر يضـمني

وعندما نشر الشاعر نزار قباني قصيدته
المشهوره (خبز وحشيش وقمر)، وأحدثت
ضجة كبيرة عارضه الشاعر الفقيه بقصيدة
أخرى نقتطف منها:

في بلادي في بلاد الكبرياء
حيث يحيا الأقوياء

ويعيشون على الدهر حياة الأنبياء
في بلادي وطن النور وأرض الأولياء
مسرح التاريخ يعتز بأبطال اللقاء
بلد الحكمة والنخوة دوماً والإباء
أمهاتي تلك جادت برجال أقوياء
ليس فيهم جنباء أدعياء..

كذلك فإن عدداً من الفنانين السوريين
غنى له بعضاً من قصائده ومنهم على سبيل
المثال المطربة ماري جبران، والمطرب نجيب
السراج، في القصيدة التي مطلعها:

قالت سأتى في غدي
يا خوف فؤادي من غد

وقد نشرت له مجلة الصياد قصيدة تعد
من آخر ما نظم الفقيد قبل رحيله وكأنه فيها
يرثي نفسه حيث ينشد:

أي ذنب جنيت يا رب حتى
ضـيـعـتـي أفكاري المعصوبه
يشحذ الحب كل عزم فما با
لي ترديت في حقول جديبه
أبدأ أرقب المساء فلا أر
جمع إلا بحسرة وكآبه
فإذا أقبل الصباح تداعى
ت كأتني أخاف منه انصبايه

وفي آخر سطور (مصرع المثال) في
ديوانه (كافر) يقول نرسييس (وهو أحد
المحاورين في التمثيلية):

عبثاً نطلب الخلود بنبي الموت
فمن كان للردى ليس ينفع
عد كما كنت للتراب ولا ترجع
وكل لأصله سوف يرجع!

وقد حزن لرحيله العديد من أصدقائه
ومحبيه من الأدباء والشعراء ولعل في قصيدة
الشاعر مسلم البرازي مثلاً على هذا الحزن
والأسف حيث يقول في ختام قصيدته (دمعة في
الربيع):

قيل أين المراح في موسم الطيب
ب فهذا الربيع في نيسانه
قلت: أين الربيع بعد زهير
ليس هذا الرجاء رهن أوانه
قلت: مات الربيع بعد زهير
وتخلّى الإلهام عن إيوانه
ماترون من الربيع بهاء
فظلال من سحره وبياناه

أيها الخال الشاعر المبدع، إنها خواطر
متواضعة وسطور قليلة في بحر إبداعك،
ورشاقة عباراتك، وجزالة لفظك، وحكمة
معانيك، ورحابة رؤاك، وتدفق شاعريتك،
ورهافة حسك، وسمو حزنك، فعسى أن تكون
لمسة وفاء لروحك الطاهرة.

ابن شقيقة الشاعر
غسان يوسف مزاحم

لا يُخفى أن الكتابة هي دعامة الحضارة القديمة والحديثة على اختلاف عصورها وشعوبها وبلدانها، فهي التي حفظت علوم القرون السابقة، ومهدت للمتأخرين سبيل التبسيط في ما اتصل إليهم من معارف الأولين، وما كاد يتعلم الإنسان فن الكتابة حتى أُلوع بتدوين أعماله وآثاره ومعلوماته، فتولدت فيه فكرة صيانتها، وبازدياد المعلومات وازدياد الحرص عليها نشأت المكتبات، وانتشرت الرغبة بين الناس في جمع المؤلفات، وتكوين المكتبات التي صارت مرجعاً لأحكام الدنيا والدين، ومستودعاً لعلوم الأولين والآخريين، وتكاثرت وانتشرت المكتبات انتشاراً غريباً في جميع الأمصار، وصارت كل مكتبة تحتوي على آلاف المخطوطات، ولكن ما وصلنا من هذه المكتبات لا يؤبه له، ولا يعد شيئاً وذكوراً بالمقابلة مع ما جمعه الأقدمون وقد طمسه الدهر وشتتته الفتن والحروب، وأحرقته التعصبات والأحقاد.

وقد نخرت كنائس وأديرة دمشق وضواحيها بمكتبات نادرة، ففي مكتباتها وجدت الأناجيل والكتب المقدسة المكتوبة على رق غزال، كما حوت نفائس المخطوطات النادرة، لكن هذه المكتبات أصابها أضرار وأحرقتها النيران وشتتتها نيران التعصب والفتن الأهلية، وسنعرض لبعض هذه الكنوز وما حل بها...!

فقد تعرضت مكتبات الكنائس والأديرة بدمشق إلى النهب والحرق والإهداء والإهمال وبيعها من قبل خزنتها.

١ - الحرق:

تعرضت كنائس دمشق للحرق عدة مرات، مما أدى إلى دمارها وإتلاف مكتباتها، خاصة في الحريق الذي كان في عام ١٨٦٠م، ومن الكنائس الدمشقية التي احترقت فيه:

مكتبات كنائس وأديرة دمشق أبادها الحريق والنهب والإهمال

بقلم:

محمد عيد الخربوطلي

- الكنيسة المريمية:

احترقت أيام الفتنة التي كانت نتيجة التعصب الذي مارسته الدولة العثمانية على رعاياها وبمساعدة بعض القناصل وأصحاب النفوذ وكان البطريرك أفثيموس كرمة (توفي عام ١٦٣٥) قد أسس مكتبة البطريركية الأرثوذكسية والتي تعد من أشهر المكتبات المسيحية بدمشق، وكان قد جاء برجال ترحموا وكتبوا، ثم زاد عليها البطريرك مكاريوس الثالث (توفي عام ١٦٧٢) وزودها بأربعين مجلد مخطوط نادر، كتب بعضها على رق غزال، لكنها أحرقت في ٢٨ حزيران ١٨٦٠، وأحرق ما في الكنيسة من كنوز ذهبية وفضية، وبقيت المكتبة طي الإهمال، حتى جردها البطريرك ملائوس الثاني دوماني (توفي عام ١٩٠٦).

- مكتبة المطرانية السريانية:

في حارة حنانيا بالقرب من باب شرقي، احترقت أيضاً ١٨٦٠ وكان فيها ٣٥٢ مخطوطاً نادراً، بينها رقوق قديمة، وقد قدرت خسارتها بـ ٣٨٢٠ ليرة عثمانية ذهبية، وكان فيها إنجيل مكتوب على رق غزال يعود للقرن الرابع الميلادي.

ومما احترق عام ١٨٦٠ كنيسة مار يوحنا الدمشقي في الآسية، وكنيسة حارة الزيتون، وكنيسة مار موسى الحبشي، وكنيسة مار سرقيس، ودير الآباء العازريين، ودير الآباء الفرنسيين، ودير مار أنطونيوس، وكلهم كانوا يحتفظون بمخطوطات نادرة وسجلات مهمة، لكن النار أخذتهم فلم تبق ولم تذر شيئاً...

- دير السيدة (الشاغورة) في صيدنايا:

ذهبت مخطوطاته قرباناً لنار تنور الخبز تعصباً وجهلاً، فللروم الأرثوذكس دير

قديم في صيدنايا بريف دمشق، يقال له دير السيدة أو دير الشاغورة، وكان للسريان مذبج خاص بهم شيدوه على اسم مار يعقوب في شمال كنيسة الدير، وظلوا مستأثرين بذلك المذبج إلى أن هدم في أواسط القرن ١٩م كما روى الأسقف اسبنسكي الذي زار صيدنايا في عام ١٨٤٣م، فخشي البطريرك الأنطاكي متوديوس (١٨٢٣ - ١٨٥٠) أن تكون كثرة المخطوطات السريانية حجة للسريان يتقوون بها على تأييد حقوقهم في الدير، فاتقاء لهذا الخطر الوهمي أمر بإضرام النار بالمخطوطات السريانية، وكان ذلك في الربع الثاني من القرن ١٩م في عهد كاترينا مبيض رئيسة الدير (١٨٣٤ - ١٨٥١م) وكان في المكتبة مخطوطات نادرة لا مثيل لها في العالم، وقد روى حبيب زيات في مجلة المشرق تموز ١٨٩٩ ما قالته له رئيسة الدير سعدى هلال التي كانت شاهدة على هذه المحرقة، وقد قالت: "كنت يومئذ صغيرة عند جدتي... وكانت المكتبة في ذلك العهد حافلة بالمخطوطات النادرة، ولا سيما السريانية منها، فإنها كانت كثيرة جداً، حتى خشي الوكلاء من كثرتها أن تكون حجة بيد السريان... فأجمع رأي القائمين على الدير على إخراجها وإتلافها تخلصاً من شرها، فجمعوها ومعظمها مخطوط على رق غزال وبدأوا يحرقونها تحت القناطر.. ثم كره رجال الدير أن تذهب نارها ضياعاً، فجمعوها في فرن الدير لتكون وقوداً له، وخبزوا عليها خبزتين، وظلت النار تشتعل أربعة أيام في تلك المخطوطات... هذا غير ما أحرق منها تحت القناطر... وأما ما بقي فتناولتها الأيدي حيث صارت قنصاً لكل صائد".

يقول حبيب زيات: ولا يخفى ما ضاع على العلم والتاريخ الشرقي من الفوائد والتعليقات التي كان يمكن اقتباسها من هذه

الذخائر القديمة، وقد كان إحراقها عمداً بيد التعصب والجهل رنة إكبار وإنكار في نفوس علماء المشرقيات حين وقفوا على شرح هذه الفضيعة الشنعاء.

وقال: ولم يحرقوا المخطوطات السريانية فقط... بل شمل الحريق سائر المخطوطات على السواء.

٢ - بيع المخطوطات والتفريط فيها:

من أقبح المصائب التي حلت بخزائن كتب الكنائس والأديرة أن من يحرسها أول من يحترس منهم عليها، فلا تكاد تنقضي سنة دون أن ينقض أحدهم على بعض ذخائرها، فبعض أرباب الخزائن سرقوا قسماً من المخطوطات وباعوها ووصل قسم منها إلى روما وفرنسا، ومن الخزائن التي سرقت:

- مكتبة دير السيدة:

بعد الحريق الذي حل بها ونجاة بعض المخطوطات، صارت قنصاً لكل صائد ونهباً لكل وارد، تتناول منها الأيدي ما تختار وتشاء بطريق الإستعارة أو العازة، فذهبت كل نفائسها ولم يسلم منها إلا قليل الفائدة.

ومما يذكره مؤرخوا المخطوطات أن يوسف السمعاني أثناء جولته في بلاد المشرق ليجمع تراثه للفاطيك كان دخل مكتبة دير السيدة عام ١٧١٥م، وكان هذا قبل الحريق... ولدى وصوله سأل رئيس الدير أن يسمح له بالدخول إلى المكتبة لينتقي منها بعض المخطوطات ويشتريها، فأوماً الرئيس إلى أكداس من الكتب والكراريس المخطوطة وهي مبعثرة ومختلفة بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل، ولما كان رئيس الدير يجهل قيمتها العلمية سمح للسمعاني أن يأخذها ليتخلص من قذارتها العتيقة وراثتها، ولاعتقاده الراسخ أنها من سقطة المتاع ولا خير في حفظها، وكان

السمعاني باحثاً عالماً، فطفق يقلب المخطوطات ويتصفحها واحدة واحدة، فإذا في أكثرها نفائس يجب أن يحرص عليها وأن تدخر في الخزائن، ثم تسلمها وهو لا يكاد يصدق أن رئيس الدير قد تخلى عنها.

وبعد نقل هذه المخطوطات إلى روما نظفت وجلدت وحفظت منظمة وصارت مرجعاً للعلماء والمؤرخين، ولو أنها لم تنقل لنالها الحرق الذي قضى على ما في الدير من مخطوطات.

- أديرة معلولا:

عرفت معلولا بأديرتها ومكتباتها القديمة، وقد تكلم عن مخطوطاتها علماء فرنسيون زاروها عام ١٨٦٣م، كما ندبت فرنسا عام ١٨٩٦م الأب باريزو لهذا الأمر، فبقي فيها أشهراً زار خلالها الأديرة واطلع على مكتباتها، فكتب ما شاهده ونشره في المجلة الآسيوية في باريس، ثم جمع ما نشره في كتاب مستقل، لكن هذه المخطوطات تعرضت للنهب والسلب من قبل من كان يرعاها.

يقول حبيب زيات: نهبت أوقاف دير القديسين سرقيس وباخوس للروم الكاثوليك وسلبت من قبل من كان يرعاها، كذلك دير القديسة تقلا وقد كان مشهوراً بكتبه القديمة الأثرية، وهي اليوم إما موجودة في خزائن أوروبا أو مدفونة عند بعض الأهالي، وقال: في عام ١٩٠٣م لم يبق اليوم في معلولا من المخطوطات السريانية والعربية إلا نسخاً نادرة من المزامير أو الكتب الطقسية، عثر عليها بعد جهد طويل وتنقيب في البيوت والزوايا، وقد كان فيها من قبل نفائس كثيرة، لكنها بيعت للسياح وتشتت أمرها، ومنها ٤٥ مجلد ذهبت إلى زحلة في القرن ١٨م، وممن زار معلولا واشترى قسماً من مخطوطاتها الأب فن

كُمنسترن عام ١٨٩٠م، ومما اشتراه مخطوطات تعود للقرن ١٦ م.

ويقول زيات: قال لي الخوري موسى الكرام أن آخر من باع من كتب ومخطوطات معلولا الموقوفة على الأديرة الشماس أندرو فيكوس ولم يبق شيئا من ذلك.

- يبرود:

عرفت مكتبة المطران غريغوريوس عطا ببيرو، قال عنها حبيب زيات: أحببت أن أزور المكتبة فقد كانت مليئة بالمخطوطات، لكنني وجدت القيمين عليها قد باعوها كلها طمعا في المال.

٣- الإهمال:

من جملة المصائب التي توالى على مكتبات الأديرة والكنائس، الإهمال، فكثير من مخطوطات دير السيدة أتلها العث والأرضة حيث أكلت أقساما منها نتيجة الإهمال، كما تعرضت مخطوطات دير القديسين سركيس وباخوص في معلولا للإهمال القاتل في أواخر القرن ١٩ م.

٤- الهدايا:

تهاون الكثيرون من قيّمي مكتبات الأديرة والكنائس في دمشق بما أتمنوا عليه، فبعضهم أهمل ذلك وبعضهم سرق الأوقاف وباعها، وهناك قسم أهدى المخطوطات النادرة وهو بذلك شتت هذه الكنوز التي جمعت خلال قرون طويلة.

فالمكتبة البطريركية الأرثوذكسية التي أحرقت عام ١٨٦٠ تم تجديدها، لكن البطريرك غريغوريوس الرابع (توفي عام ١٩٢٨) أهدى قسما من مخطوطاتها إلى مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق، وقبل ذلك جمع مخطوطات ثمينة أخذها هدية إلى المكتبة القيسرية في

بطرسبرج عندما ذهب إلى روسيا عام ١٩١٣م في مناسبة اليوبيل القرنى الثالث (١٦١٣ - ١٩١٣م) لإرتقاء آل رومانوف إلى العرش الإمبراطوري الروسي.

ثم نقلت تلك المخطوطات إلى خزانة مخطوطات المتحف الآسيوي في عاصمة روسيا، وقد وضع لها المستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكي فهرسا خاصا لها عام ١٩٢٤.

وعندما مرض المطران يوسف داود رئيس أساقفة دمشق على السريان الكاثوليك، أهدى أنفس مخطوطات مكتبته إلى مدرسة نشر الإيمان في روما، وإلى دير الشرفة في لبنان، كما أهدى قسما منها إلى بعض أصدقائه وهكذا تفرقت.

وأخيراً...

إن دمشق تعد خزائنا مليئا بالمخطوطات، وقد توجهت كل عيون العالم نحوها لجمع ما فيها، فمن بابوات روما الذين سعوا بكل الوسائل للحصول على مخطوطات المشرق وخاصة دمشق، إلى ملوك أوروبا وخاصة فرنسا الذين أوفدوا البعثات العلمية للمشرق للحصول على تحف المخطوطات المكنوزة في المعابد والأديرة والمدارس، وانتهاء بالسفارات والقنصليات ممثلة بموظفيها، فهذا هارثمان مستشار القنصلية الألمانية في بيروت يدخل دمشق ويجمع خزانة تضم أئمن المخطوطات، كل هؤلاء سعوا لإحراز كنوز المشرق وبكل الوسائل، ساعدهم على ذلك خيانة رجال الدين لما أتمنوا عليه، وجهل القيمين على المخطوطات، فكلهم بإغراء قليل من المال باعوا كنوز معابدهم.. ثم تم تسريبها إلى بلاد من الصعب علينا الحصول عليها بعد ذلك، بعدما أخذت من بين أيدينا.

طالعوا صباح كل سبت

الأسبوعية
الثقافة

مجلة فكرية جامعة تصدر في دمشق

السعر (٣٠) ل.س

مؤسسها ورئيس تحريرها

مراجعة عكاش